



قَرَارِزِيلَا

تأليف
الدكتور محمد باقر

ترجمه
نجيب السكاوي
مؤدّت عمّات
راجعه
الدكتور محيى الحساب



جرازيلا

بإشراف
الإدارة العامة للشعافه
وزارة التربية والتعليم
بالتعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

جرازيلا

لامارتين

ترجمه

نجيب المستكاوي جودت عثمان

راجعه

الدكتور يحيى نخشاب

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

١٩٦١

هذه ترجمة كتاب :

GRAZIELLA

تأليف

A. DE LAMARTINE

لقصص الأول

- ١ -

في الثامنة عشرة من عمري ، عهدت بي أسرتي إلى إحدى قريباتي التي استدعتها بعض الشئون إلى توسكانيا ، حيث ذهبت برفقة زوجها . وكانت هذه فرصة لحلي على الترحال ، وانتشالي من الفراغ الخطر في بيت الأسرة والمدن الريفية حيث تفسد بواكير شهوات الانفس لانهدام النشاط . فرحلت متحمسا حماس الطفل الذي يتوقع أن يرى السناج يرتفع عن أروع مشاهد الطبيعة والحياة .

جبال الآب ، التي كنت من بعيد ، منذ طفولتي ، أرى لموجها الأزلية نألتني في نهاية الألفي ، من ذرى تلال مي ، والبحر الذي كان الرحالة والشعراء قد رسخوا في ذهني كثيراً من صوره الباهرة ، والمعجم الإيطالية التي كنت ، إن جاز القول ، قد استروحت دفنها وصفاءها في صفحات كورين وفي أشعار جوتة :

هل تعرف تلك الربوع التي يزدهر فيها الريحان ؟

وآثار قدماء الرومان التي ما برحت قائمة ، والتي كانت دراسقي لها قريبة العهد تملأ فكري ، ثم الحرية ، والمدى الذي يضفي على بعيد الأشياء

هيبية ، والمغامرة ، وما في طول الرحلات من أحداث محققة يتنبأ بها
الحيال الشاب تنبؤا ، ويجد في ترتيبها متعة ، بل يستمتع بها سلفا ،
وتغيير اللغة والوسوء والأخلاق ، الذي يبدو كأنه يظهر العقل على دنيا
جديدة : كل ذلك يسحر ذهني سحرا .

عشت في حالة نشوة متصلة خلال أيام الانتظار الطوال التي سبقت
الارتحال ، هذه النشوة التي كانت تتجدد كل يوم بفضل روائع الطبيعة
في سافوي ، وسويسرا ، وبحيرة جينيف ونلوج سبلون وبحيرة كومو ،
وميلانو ، وفلورنسة ، هذه النشوة لم تخف حدتها إلى حين عودتي .

وإذ تشعبت الشئون التي دعت رفيقتي إلى السفر إلى ليفورن ، فقد
جهرى الحديث في شأن إعادتي إلى فرنسا دون أن أرى روما و نابولي ،
وكان ذلك بمثابة انزعاج حلي من لحظة أن كدت أحققه ، فثرت في ذهني
على مثل هذه الفسكرة . وحررت إلى أبي أسأله أن يأذن لي ، وأصلته
السفر في إيطاليا وحدي . ودون أن أنتظر الرد الذي لم يراودني الأمل
في أن يكون موافقا ، قررت أن أسبق إلى شق عصا الطاعة . قلت في
نفسي : « إن جاء الرفض فسيجيء متأخرا . سيأوموني ولكن سيصفحون
عني . وسأعود ولكن بعد أن أكون قد شاهدت ، . . وراجعت
عاليقي المحدودة ، بيد أني وضعت في الحسبان أن لأمي قريبا مقبلا في
نابولي ، وأنه لن يأتي مدى يهضر النقود للعودة . وذات ليلة جميلة
رحلت من ليفورن عن طريق روما .

وأنفقت فيها الشتاء بمفردي في غرفة صغيرة في شارع معتم يطل
على ميدان أسبانيا ، لدى رسام روماني اتخفني نزلا في أسرته . وكان
حيائي وشبابي وحمامي وانفرادي وسط بلد غريب قد أثار اهتمام

أحد رفاق سفرى فى الطريق من فلورنسة إلى روما ، وقد نشأت بيننا صداقة على الفور ، كان شابا وسيما يناهزنى فى العمر ، ويبدو أنه كان ابن أو ابن أخى - المغنى الشهير دافيد ، الذى كان حينئذ المغنى الأول ، فى مسارح إيطاليا وكان دافيد يرحل معنا أيضاً . وكان رجلا قد تقدمت به السن . وكان ذاهبا ليغنى لآخر مرة على مسرح سان شارل فى نابولى .

كان دافيد يعاملنى معاملة الأب لابنه ، وكان رفيقه الشاب يغمرنى بلطفه وعطفه . وكنت أرد على هذه المجاملات بما يقتزن بسنى من عدم أكثرث وسذاجة . ولم نسكرد نعمل إلى روما حتى أمسيت أنا والمسافر الوسيم صديقين لا يفترقان . ولم تكن العربية وقتذاك تقطع المسافة بين فلورنسة وروما فى أقل من ثلاثة أيام . وفى الفنادق كان صديق الجديد ترجمانا لى ، وعلى المائدة كان يقدمنى فى اغتراف الطعام ، وفى العربية كان يحتجز لى بجواره أفضل مكان ، وإذا غفوت فموقنا أن كتمفه ستكون وسادة لرأسى .

وعندما كنت أنزل من العربية فى المطالع الطويلة بتلال توسكانيا أو ساينا كان ينزل معى ، ويشرح لى البلد ، ويطلعنى على أسماء المدن ، ويدلنى على الآثار . بل إنه كان يقطف الزهر البديع ويشترى الطيب من التين والعنب فى الطريق ، ويملا يدى وقبعتى بتلك الثمار . وكان يلوح أن دافيد يرقب بسرور عاطفة رفيقه فى السفر نحو الاجنبي الشاب . وكانا فى بعض الأحيان يتبادلان الابتسام وهما ينظران إلى فطرة تم عن التفاهم والرفقة واللطف .

وإذ بلغنا روما فى الليل ، اختلفت معهم بطبيعة الحال إلى فندق

واحد . وأرشدت إلى غرفتي ، ولم أستيقظ إلا على صوت صديق الثشاب يطرق الباب ، ويدعوني إلى تناول الإفطار فارتديت ثيابي على عجل ، وتزلت إلى البهو حيث يجتمع السياح . وهممت أن أصفاح يد رفيقي في السفر ، وعيشتا جلست بعيني بحثا عنه بين الزلاء ، وإذا بجميع الحضور ينفجرون في قهقهة عالية . فبدلا من ابن دافيد أبصرت بجانبه فتاة رومانية ساحرة الحياء ، أنيقة الملبس .

وكان شعرها الحالك ، المدقوص حول جبينها ، مشدوداً إلى الخلف بدوسين طويلين من ذهب ، رأساهما من أؤلؤ ، على طريقة فلاحات تيغولي . وكانت هي صديقي الذي استعاد لدى وصوله إلى روما جنسه وملابسه .

كان ينبغي أن أشقبه في رقة نظرتها وفي جمال بسمتها . بيد أني لم يساورني في ذلك أي شك . قالت لي الرومانية الحسنة وقد تورد وجهها خجلاً ، إن الثوب لا يغير القلب ، وكل ما في الأمر أنك إن تنام على كتفي ، وبدلاً من أن تتلقى مني الزهور فأنت الذي سوف تهديني إياها . وسنعلبك هذه المغامرة ألا تثق فيما بعد فيما بيدي لك من مظاهر الصداقة ، فقد تكون شيئاً آخر .

كانت الفتاة مغنية : تلميذة دافيد المفضلة . وكان المغني المعجوز يصطحبها في كل مكان ، ويلبسها في الطريق ملابس الرجال تفاديا للقييل والقال . وكان يعاملها كأبها ، ولم تكن تخالجه الغيرة قط بسبب الألفة والبريئة التي سمح هو أن تنشأ بيننا .

اتفق دافيد وتلميذته بضعة أسابيع في روما . وغداة وصولنا
عادت إلى ملابس الرجال ، واقتادتني أول الأمر إلى سان بيير ، ثم إلى
الكوليزيوم ، وفراسكاتي ، تيفولي ، وألبانو ، وكذلك تفاديت
التكرار المصنئ من جانب الأدلاء المأجورين الذين يشرحون
للسياح جسد روما ، والذين يوشون المشاعر ببنياناتهم المملة عن أسماء
الأعلام والتواريخ ، فيشغلون الفكر ويحولون الإحساس عن الجليل من
الاشياء . لم تكن كامبلا عامة ، بيد أنها ولدت في روما فكانت تعرف
بالغريزة المناظر الجميلة والمشاهد العظيمة التي أثرت في نفسها لإبان
طفولتها .

كانت تقتادني دون إعمال فكر إلى خير البقاع وفي خير الأوقات
التأمل في أطلال المدينة العتيقة : في الصباح في كنف أشجار الصنوبر
ذات القباب الضخمة في جبل مونت بنشيو ، وفي المساء تحت ظلال
أعمدة سان بيير ، وفي ضوء القمر إلى هو الكوليزيوم الساكن ، وفي
أيام الخريف الجميلة إلى ألبانو ، وفراسكاتي ، ومعبد السبيل الذي
يتردد في جنباته ويسيل في أنحائه بخار شلالات تيفولي ، كانت مرحلة
نزقة كأنها تمثال للشباب الخالد ينتصب وسط أطلال الزمن والردى
هذه . كانت ترقص على مقبرة سيسيليا متيلا ، وحينما كنت أجلس
حالما فوق حجر ، كانت تجعل قباب قصر ديوكسيا الأنيقة تردد صدى
نبرات صوتها المسرحي .

وفي المساء كنا نعود إلى المدينة وعربتنا مليئة بالزهور ومخلفات

التماثيل للنلحق بدافيد العجوز ، الذى كانت شؤنه تستبقيه فى روما ،
والذى كان يقتادنا إلى مقصوره اختتاماً لليوم . ولم تسكن المغنية التى
تسكيرنى ببضع سنوات تظهر لى من المشاعر إلا صداقة رقيقة . وكنت
أبلغ من الحياء ما لا أستطيع معه أن أبدى لها مشاعر أخرى ، بل لانه
حتى لم أشعر بها بالرغم من شبابه وجمالها . فإن زى الرجال الذى
ترتيديه ، وألفتها معى ألفة الرجال ، ونفحة صوتها السكونى التى
الرجولى ، وتحرر سلوكها ، كل ذلك كان يترك فى نفسى أثراً بلغ من عمقه
أنى لم أرفها سوى شاب جميل : رفيق وصادق .

— ٣ —

عندما سافرت كامبلا ، مكثت وحدى فى روما ، دون أى خطاب
توصية ، ولا أى معارف سوى ما عرفتني به كامبلا من مواقع وآثار
وأطلال . ولم يكن الرسام العجوز الذى أقمت عنده يخرج قط من
مرسمه إلا ليذهب يوم الأحد إلى القديس مع زوجته وابنته ، وكانت
فناة فى السادسة عشرة نشطة مثله . وكان يهتم أشبه بالدير حيث لا يقطع
عمل الفنان إلا وجبة شهية أو صلاة .

وفى المساء ، عندما تنطفئ أواخر أشعة الشمس على نوافذ غرفة
الفنان الفقير العالية ، وتدق أجراس الأديرة المجاورة لحى السلام
لك يا مريم ، وداع النهار الموسيقى هذا فى إيطاليا ، كانت التسليمة
الوحيدة للأسرة أن تعلى وتسبح جماعة ، وأن تترنم بقرأة مستطيلة
من « المزامير » ، إلى أن تؤول الأصوات التى تضعها النعاس لئلا

شمس خامض مل أشبه بهمس الموج الذى يهدأ عند الشاطئ. حيث
تسكن الريح مع هبوط الليل .

كنت أحب مشهد المساء الساكن الورع هذا ، حيث ينقضى نهار
حافل بالعمل بهذه التسليحة لأرواح ثلاثة ترتفع إلى السماء لتستريح
من عناء اليوم . كان هذا يذكرنى ببنت أبى ، حيث كانت أمى تجمعنا
أيضاً فى المساء للصلاة ، حيناً فى غرفتها ، وحيناً فى المعرات الرملية
بجديقة مبي الصغيرة ، عند أضواء الشفق الأخيرة . وإذا وجدت نفسى
العادات والأفعال والدين ، كنت أشعر بأنى وسط هذه الأسرة الغريبة
أعيش تحت سقف بيت أبى . لم أرقط حياة أمعن انطراء وورعا ،
وأكثر اعتكافاً ونشاطاً ونظيراً من حياة بيت الرسام الرومانى .

وكان للرسام أخ . ولم يسكن هذا الأخ يقيم معه . كان يعلم اللغة
الإيطالية لذوى الحثيثة من الأجانب الذين ينفقون الشتاء فى روما .
ولم يكن مجرد مدرس لغة ، فقد كان أديبا رومانيا من أول طراز .
وكان لا يزال فى عنفوان الشباب ، رائع القسما « قديم » الخلق ، مما
أهله للقيام بدور بارز فى محاولات الثورة التى قام بها الجمهوريون
الرومانيون لابتعاث الحرية فى ديارهم . كان أحد الزعماء الشعبيين ،
وكأنه « رينزى » هذا العهد . وفى هذا البعث القصير لروما العتيقة ،
الذى أذكاه الفرنسيون وأخمداه ماك وأهل نابولى ، لعب دورا من أهم
الأدوار ، فقد خطب فى الشعب فى السكابتول ، ورفع راية الاستقلال ،
وشغل مركزا من أهم المراكز فى الجمهورية . ولقد طورد ، واضطهد ،
وسجن أثناء الحركة العكسية ، ولم يحصل على أمته إلا بفضل مجيئ
الفرنسيين الذين أنقذوا الجمهوريين ، وإن قضوا على الجمهورية .

كان هذا الرومانى يعبد فرنسا الثورية والفلسفية ، ويمتدح
الإمبراطور والإمبراطورية ، وكان يونا برت عنده كما هو شأنه عند
كل الإيطاليين الأحرار قيصر الحرية . وكنت أنا أيضا فى ميعة
الشباب وإذا كانت تخالجنى المشاعر نفسها . وسرعان ما ظهرت بيننا
هذه المشاركة العسكرية ، وإذا شاهد مدى ما يعتمل فى نفسى من حماس
قوار و رزين فى الوقت نفسه إزاء نفثات الحرية ، عند ما كنا نطالع
القصائد النارية للشاعر موتى أو المشاهد الجمهورية لايڤيرى ، فقد
رأى أنه يمكنه أن يفتح لى قلبه فتحا ، فأصبحت له صديقا أكثر من
تلميذا .

— ٤ —

إن البرهان على أن الحرية هى المثل العاوى للإنسان ، هو أنها
أول أحلام الشباب ، وأنها لا تفيض من النفس إلا عندما يذوى
القلب وينحط الذهن أو يقنط . فما من نفس تبلغ العشرين عاما إلا
وتعتنق الجمهورية ، وما من قلب بال إلا ويتقبل العبودية .

كم من مرة ذهبت أنا وأستاذى لنتجلس على تل فيلا بامفيل الذى
يرى المرء منه روما وقباها وخراثمها ، والثير ، نهرها الذى ينسرب
موحلا ، صامتا ، خجلان ، تحت قناطر بونت روتو المقوضة .
حيث يسمع أنين عيونها الشاكية ، وخطوات أهلها الصامته إذ يمشون
فى سكوت فى شوارعها المقفرة . كم من مرة ذرقنا دموعا مرة على مصير
هذه الدنيا المستتمة لسكل ضروب الطغيان ، حيث كلما لاح أن الفلسفة

« الحرية تحاولان أن تبعثا لحظة في فرنسا وإيطاليا طعنهما الطغاة ،
وخذلوهما ، وكتبوهما في كل مكان . كم من لعنة ندت من صدرينا
في صوت خفيض على طاغية الذهن البشرى هذا ، على هذا الجندي
المتوج الذي لم ينضم للثورة إلا ليستمد منها القوة لكي يدمرها ، ويسلم
الشعوب من جديد اسكل صنوف الأباطيل والعبودية .

عندى أنه من هذا العهد يبدأ حب الناس لتحرير الذهن البشرى ،
ويبدأ ذلك البغض الفكري لبطل العصر هذا ، البغض المحسوس
والمعقول في وقت معا ، الذي يحققه ، التفكير والزمن ، بالرغم من
المظنين في ذكره .

- ٥ -

تحت تأثير هذه المشاعر درست روما ، تاريخها وآثارها . كنت
أخرج في الصباح وحدي ، قبل أن يتهاى العجيج المدينة أن يشغل فكر
المتأمل . وكنت أتأبط كتب المؤرخين والشعراء ، وواصفى روما .
وكنت أجلس ، أو أتجول خلال أطلال الفورم ، والكوليزيوم ،
والريف الروماني المقفرة . كنت تارة أشاهد ، وتارة أطلع وأفكر .
كنت أدرس روما دراسة عملية جادة .

كان هذا أفضل بحوثي في التاريخ . وبدلاً من أن يكون الزمن الغابر
مورثاً للضجر أصبح عندى عاطفة . ولم أتبع في هذه الدراسة منهجاً
آخر سوى ميولي . فقد كنت أسير ، على غير هدى ، إلى حيثما تقودني
هقدماي . وكنت أنتقل من روما العتيقة إلى روما الحديثة ، من الباثيون

إلى قصر ايون العاشر ، من بيت هوراس في «تيفور» إلى بيت رافائيل»
الشعراء ، والرسميون ، والمؤرخون ، والعظماء : كان الجميع يمررون
أمامي بلا ترتيب ، فلا أستوقف منهم هنية إلا من يستثير المزيد من
اهتمامي في ذلك اليوم .

وزهاء الساعة الحادية عشرة كنت أهود إلى «زنزاني» الصغيرة
في منزل الرسام لتناول الإفطار . كنت أكل كسرة من الخبز وقطعة
من الجبن وأنا مختلف إلى المنضدة ، منكب على المطالعة . وكنت أشرب
قدحاً من اللبن ، ثم أعمل وأدون مذكراتي ، وأكتب حتى موعد الغداء .
وكانت تعدد لنا زوجة مضيقة وبنته بذاتيهما ، وكنت بعد الوجبة أقوم
بجولات أخرى ولا أعود إلا بعد انسداد الليل . وكانت بضع ساعات
من الحديث مع أسرة الرسام ومن المطالعات المتوغلة إلى هزيع متأخر من
الليل تختم هذه الأيام الهادئة . لم أكن أشعر بأى حاجة للاجتماع بالناس ،
بل كنت أستمتع بعزائي . كان حسبي روما ونفسي وكذلك أنفقت
شتاء طويلاً بأكمله ، منذ شهر أكتوبر حتى شهر أبريل التالي ، دون يوم
من الملل أو الضجر . ولأنه لعل ذكرى هذه الأسابيع نظمت بعد مضي
عشر سنين قصيدة عن «تيفور» .

- ٦ -

والآن ، عندما ألقب جيداً في فكري كل ما خلفت وروما في
نفسي من أحاسيس ، لا أجد إلا اثنين يحوان الأحاسيس الأخرى
جميعاً أو على الأقل يسيطران عليهما : السكوليزيوم ، تحفة الشعب الروماني ،
وسان بيير ، آية الكاثوليكية . إن السكوليزيوم أترجبار لشعب فذخارقه

كان يشيد إرضاء لتكبرياته ومتمعه الوحشية آثارا يمكن أن تحتوى شعباً بأكمله ، آثارا تنافس من حيث الضخامة والاستدامة صنائع الطبيعة نفسها . . ولو أن نهر التيبر غاض بين ضفافه المحيطة لظل الكوليزيوم قائماً يشرف عليه .

أما سان بيير فهى عمل فكر ، عمل دين ، عمل الإنسانية جمعاء فى عصر من عصور الدنيا . فليس الأمر أمر عمارة مكرسة لاحتواء شعب موضوع . وإنما هى معبد مكرس لاحتواء الفلسفة كلها ، والصلوات كلها ، وعظمة الإنسان كلها ، وفكره كله . يبدو أن الجدران ترتفع . وتتسع لا بالقياس إلى شعب ماء ، بل بالقياس إلى الإله . لقد فهم ميشيل أنجلو وحده الكاثوليكية وأعطاهما فى كنيسة سان بيير أسمى وأكمل تعبير . حقيقة إن سان بيير هى تأليه حجرى بل تجسد أثرى لدين المسيح .

كان مهندسو الكاندرانيات القوطية برابرة رائعين . أما ميشيل أنجلو فكان وحده فلبسوها فى تصويره . إن سان بيير هى النصرانية الفلسفية التى يطرد منها المهندس الإلهى الظلمات ، ويدخل فيها المبدى والجمال ، والاتساق ، والنور فى أمواج لا تنفرغ ، إن جمال روما المنقطع النظير هو فى أنها معبد تغاله مكرسا لينطوى على فكرة الله بكل جلالها .

ولو أن المسيحية انقضت لظلت سان بيير المعبد العالمى ، الأزل ، العقل ، الدين الذى سيعقب دين المسيح أيا كان ، على شريطة أن يكون ديناً يليق بالله وبالإنسانية . لأنه أكبر معبد معنوى شيدته على البسيطة عبقرية الإنسان ملهمة بفكرة إلهية . فعندما نتوجه لا تدرى هل أنت فى معبد عتيق أم فى معبد حديث ، فما من تفصيل يضىء العين ،

وما من رمز يشغل الفكر ، جميع الناس من جميع الأديان يدخلونه يحدوهم عين الاحترام . إنك لتحص أنه معبد محال أن تسكنه غير فكرة الله ، وأن أية فكرة أخرى محال أن تملأ فراغه .

بدل السكان ، احذف الهيكل ، افصل اللوحات ، انقل التماثيل : لا شيء يتغير فإنه دائماً بيت الله . أو الأخرى أن سان بيير وحدها هي رمز كبير للمسيحية الأزلية التي تملك كبدرة في تعاليمها الأخلاقية وفي قدامتها التطورات المتعاقبة للفكر الديني في جميع العصور وللناس أجمعين فتفتح للعقل بحسب ما يتبره الله ، وتتصل في النور مع الله ، وتوسع ، وترتفع مع مقاييس الذهن البشري الذي يتسع بلا انقطاع ويستجمع الشعوب جميعاً في عبادة واحدة فيجعل من صور الألوهية كافة لها واحداً ، ومن الأديان جميعاً ديناً واحداً ، ومن الناس أجمعين إنسانية واحدة .

إن ميشيل أنجلو هو بمثابة موسى للكاثوليكية الأثرية ، كما صيغهمها الناس ذات يوم . لقد صنع « تابوت العهد » للمستقبل ، صنع بانثيون العقل المأوله .

- ٧ -

وأخيراً بعد أن شجعت من روما ، أردت أن أرى نابولي . كان ما جذبني إليها على الأخص قبر « فرجيل » ومهد « لوتاس » فقد كانت البلاد عندي دائماً أناساً ، فنا بولي هي فرجيل ولوتاس . خيل إلى أنهما على قيد الحياة أمس ، وأن رمادهما مازال دافئاً ، وكنت أرى سلفاً

خلال جو عبقريتها الجميلة الرقيقة ، البوزليبي ، والسوراتو ،
وفيزوف ، والبحر .

رحلت إلى نابولي في أواخر شهر مارس . وقد سافرت في عربة
بريد مع تاجر فرنسي كان يبحث عن رفيق طريق لينحذف تسكاليف
السفر . وعلى مسافة من فليليتري صادفتنا عربة بريد روما - نابولي
مقلوبة على حافة الطريق مشقوبة بالرصاص . وكان موظف البريد ،
والسائق ، وجوادران مجندين . وكانت جثتا الرجلين قد نقلتا من وقت
قريب إلى كوخ مجاور . وكانت المنشورات المقطعة ومزق الرسائل
تذروها الريح . وكان قطاع الطريق قد اتخذوا طريق أبروز . وكانت
تطاردهم بين الصخور قصائل من الفرسان والمشاة الذين كانت وحدتهم
مرا بطة في تيراسين . وكنا نسمع دوى الرصاص ، ونرى على سفح الجبل
بطوله دخان الطلقات النارية . وكنا نقابل من مسافة إلى مسافة
ممسكرات القوات الفرنسية والناپوليسية مبشورة على طول الطريق .
كذلك كان الدخول إلى مملكة نابولي آنذاك .

كان لقطع الطريق هذا صبغة سياسية . فقد كان «مورا» يحكم ،
وما فتئ الكالابريون يقاومون ، وكان الملك فرديناند ، الذي انسحب
إلى صقلية ، يزود رؤساء العصابات في الجبال بالموارد . وكان فراديا فولو
الشهير يحارب على رأس تلك العصابات . كانت حملاتهم مذابح . ولم
تجد النظام والأمان إلا عند مشارف نابولي .

بلغتها في أول أبريل . ولحق في بعد ذلك بيضعة أيام شاب يناهزني
في العمر ، كنت قد ارتبطت وإياه في المدرسة بالحمة صداقة أخوية

حقيقية . كان يدعى إيمون دى فريبه ، وكانت حياته وحياتي منذ طفولته إلى مااته منذ مجتئين لدرجة أن وجوده ووجودى كان يكمل كلاهما الآخر ، وأنى تحدثت عنه فى كل موضع تحدثت فيه عن نفسى .

٨

عشت فى نابولى حياة التأمل نفسها تقريبا التى عشتها فى روما لدى رسام ميدان أسبانيا العجوز ، إلا أنى بدلا من إنفاق نهارى متجولا بين أطلال الآثار كنت أنفقه على الشواطىء أو على متن أهواج خليج نابولى . وكنت أعود فى المساء إلى الدير القديم ، حيث كنت أقيم - بفضل كرم ضيافة قريب أسمى - فى غرفة صغيرة تحت السقف مباشرة . وكانت شرفتها المزينة بأصص الزهور والنبات المتسلق تطل على البحر وبركان فيزوف ، وكاستلامارى ، والموراتو .

لما كان أفق الصباح يبدو صافيا رائفا ، كنت أرى بيت لوتاس المناصب متألقا ، معلقا كأنه وكر دمجعة ، على قمة الصخور الباسقة الصفراء التى تحتها الأمواج نحتا عموديا . كان هذا المشهد يخلب لى ، كان ضوء هذا البيت يتلأل حتى يلبس شغاف نفسى : كان بمثابة بريق مجد يشع من بعيد على شبابى وخول ذكرى . فيتوارد على خاطرى مشهد البطولة فى حياة هذا الرجل العظيم ، عندما أفرج عنه من السجن ، يلاحقه حسد الصغار وتشهير الكبار ، يتخرون عليه حتى فى عبقريته ، ثروته الوحيدة ، فهاد إلى السورنتو يشد لحة من راحة ، ومسحة من رقة أو شفقة ، وإذا يتنكر فى أسمال متسول يتقدم إلى أخته ليبلو قلبها ويرى ما إذا كانت هى حل الأقل تعرف على ذلك الذى طالما أحبا .

ويقول مؤرخه الساذج « رغم شحوبه من الملة ، ولحيته المبيضة ومعطفه الممزق ، ارتمت بين ساعديه يحدوها من الحسان والإشفاق أكثر مما لو كانت عرفت أخاها مرتديا ثياب حاشية فيرارى الموشاه بالذهب . واحتبس صوتها طويلا بالنشيج ، وضمت أخاها إلى فؤادها . وغسلت له قدميه ، وأحضرت له معطف أبيها ، وأعدت له وجبة احتفال . إلا أنه لا هذا ولا ذلك استطاع أن يجعله يمسس الطعام الذى أعد ، فأبى هذا الحد كان قلباهما فانتضين بالدموع ، وأنفقا النهار يحمشان بالأسكاه دون أن يتحداثا ، مشاهدين البحر ومتذكرين أيام الصبا . »

٩

و ذات يوم ، كان مستهل الصيف ، حينما يشبه خليج نابولي وقد حفت به النلال ، والبيوت البيضاء والصخور المكسوة بالكروم المعرشة المحيطة ببحرها الذى يفوق سماءها زرقة يشبه آنية أثرية خضراء مترعة بالزبد الأبيض ، ويزين اللبلاب والعصاليج مقابضها وحوافها . كان الموسم الذى يتبع فيه صيادو البوز يلبس الذين يقيمون أكوأخهم معلقة على صخور الخليج . وينشرون شباههم على الرمال الرقيقة لشواطئهم الصغيرة . يتعدون عن الأرض في ثقة . . وينطلقون للصيد في الليل على بعد مرحلتين أو ثلاث مراحل وسط الدأما ، اغاية صخور جزر كابرى وبروسيدا وإيسكيا . ووسط خليج جابى .

ويحمل بعضهم مشاعل يوثقونها ليخدعوا السمك . فيصعد السمك نحو الضوء حاسبا أنه شفق الصباح . ويجلس طفل القرفصاء على مقدم القارب ، ويمسك الشعلة مائلة فوق الموجة ، في حين ينظر الصياد فى أغوار

المياه محاولاً أن يرى فريسته ليقبضها في شبكته . وتنعكس هذه النيران المتوهجة توهج موقد القرن - تنعكس في خطوط طويلة متموجة على صفحة البحر ، مثل الأضواء المستطيلة التي تشعها عليه الكرة القمرية ، وتدفقها رجرة الأمواج إلى الاهتزاز فيمتد ويمضها من موجة إلى موجة فيبتعد بقدر ما تعكسه الموجة الأولى على الأمواج التي تعقبها .

١٠

كثيراً ما كنا ننفق ساعات بأكلها ، صديق وأنا ، جالسين على صخرة أو على أطلال قصر المسكوك جان الرطبة ، نشاهد هذه الأضواء العجيبة ، ونحسد أولئك الصيادين الفقراء على حياتهم المتجولة الخالية من الهموم .

وقد جعلنا إقامة بضعة أشهر في نابولي . ولقاؤنا المعتاد لأفراد الشعب أثناء جولاتنا اليومية في الريف والبحر . نألف لفهم الرثابة المنغمة . التي تحمل الإشارة والنظرة فيها مكاناً أكبر مما تحتله الكلمة . ولما كنا فيلسوفين بالحدس . ومتعبين بشواغل الحياة وزعازعها الباطلة قبل أن نعرفها . فقد كنا نغبط أولئك الصيادين السعداء المنقشرين على شواطئ نابولي وأرصفاتها . منفقين أيامهم في النوم تحت ظلال قواربهم الصغيرة على الرملة . أو في استماع القصائد المرتجلة لشعرائهم المتجولين . وفي رقص التارتانلا مع فتيات طبقتهن ، في المساء ، تحت تعاريف السكرم على شاطئ البحر . وكنا نعرف عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم أفضل مما نعرف عادات وطباع وأخلاق المجتمع الراق الذي لم نشهه قط ، كانت هذه الحياة تعجبنا وتهدى فينا نائرة هذه الاختلاجات

النفسانية المحرمة . التي تفسد خيال الشباب بلا جدوى قبلها يدعوهم
عصيرهم إلى العمل أو إلى التفكير .

كان صديقي في العشرين من عمره ، وكنت في الثامنة عشرة . كان كلانا
إذن في تلك السن التي يسمح فيها للمرء بأن يخلط بين الخيال والحقيقة .
فقولنا على أن نتعرف بأولئك الصيادين وأن نبحر معهم لنعيش الحياة
نفسها بضعة أيام . كانت هذه الليالي الدافئة المضطربة التي تنفق تحت
الشراع ، في هذا المهد الذي تهدده الأمواج . وتحت السماء العميقة
المتلازمة النجوم . كانت تبدولنا لذة من أمعن لذات الطبيعة استغلاقا ،
لحظة ينبغي أن نفتنمها ونعرفها ، ولو لمجرد أن نروها .

كنا شبابين حريين ، وليس ثمة من يحاسبنا على أفعالنا وغيابنا
ولذا فقد نفذنا في الغداة ما حملنا به في العشية . ولذا اخترقنا شاطئ
المارجولين الذي يمتد تحت قبر فرجيل ، في سفح البونبليب . وحيث
يشد صيادو فابولي قواربهم على الرملة ويرتقون شباكههم . أبصرنا
شيخاً مابرح قويا . كان يشمذ أدوات صيده في قاربه المزخرف بألوان
صارخة ، والذي يحمل في مؤخرته تمثالا صغيرا للقديس فرنسوا . وفي
تلك اللحظة كان طفل في الثانية عشرة من عمره — هو يجذفه الوحيد —
يحضر إلى القارب رغيفين من الخبز وقطعة جافة من الجبن ، صفراء تبرق بريق
حسباء الشاطئ ، وبعض التين ، وآنية من الفخار تحتوي على الماء .

وقد جذبنا وجه الشيخ ووجه الطفل أيضاً ، وجاذبناهما أطراف
الحديث . وأنشأ الصياد يباثيم عندما اقترحنا عليه أن يقبلنا عنده
نكمجدين وأن يأخذنا معه إلى البحر . قال لنا : « ليس لسكا الأيدي
الحشنة اللازمة لمسك المجذاف . إنما خلقت أيديكم البيضاء لمسك القلم

وليس الخشب ، لأنها لحسارة أن نخشونها في البحر . ، فأجابه صديق .
« نحن شابان ونود أن نجرب كل الحرف قبل أن نختار إحداها . وإن
حرفك لتروقنا لأننا تؤدي في البحر وتحت السماء . » فرد الصياد
العجوز « أنت على حق ، فهي حرفة تجعل القلب راضياً قريراً ، والذهن
واثقاً ، وموئناً بحماية القديسين . فالصياد يعيش في رعاية السماء المباشرة ،
والإنسان لا يعرف من أين يأتي الريح والموج . إن القارة والمبرد في يد
العامل ، والثروة والحظوة في يد الملك ، أما القارب ففي يد الله . »

زادتنا فلسفة التوقي العجوز التيقية هذه إصراراً على فكرة الإبحار
معه . وأخيراً قبل بعد مقاومة طويلة ، وانفقنا على أن يعطينه كلانا
يومياً « كارلنين » نظير تعليمنا وغذائنا .

وعلى أثر إبرام الاتفاق ، أوفد الطفل إلى المارجالينا لاجتلاب زبد
من المثونة من خبز ونيدز وجبن جاف وفاكهة . وعندما أدير النهار
ساعدناه في إنزال القارب إلى البحر وأقلعنا .

- ١١ -

كانت الليلة الأولى لذيدة رائعة . . كان البحر هادئاً هدهو بحيرة
مصورة بين جبال سويسرة ، وكلما نأينا عن الشاطئ رأينا أسنة النار
المنبعثة من نوافذ قصور نابولي وأرصفتها تتوارى تحت صفحة الأفق
المنعثة . كانت الفئارات وحدها تزين الشاطئ . وكان يتولاها الحفوت
أمام عمود النار الخفيف المتدلح من فوطة بركان فيزوف . وبينما كان
الصياد يلقي شبكته ويجذبها ، والطفل المثقل الأجفان يترك شعلته

تتأرجع ، كنا نعطى القارب بين الفينة والفينة دفعه خفيفة ، ولستمع في نشوة إلى قطرات المياه المنعمة التي تنساب من مجدافينا ، وتساقط في البحر في إيقاع رتيب تساقط الكلى في حوض من لجين .

لقد تخطينا منذ أمد طويل رأس البوزيليب ، واخترقنا خليج بوزوليس ، وخليج يايا ، وتجاوزنا قناة خليج جايتي بين رأس مسينا وجزيرة بروسيدا ، أمسينا في عرض البحر ، وغلبنا النعاس فقمنا تحت مقاعدنا ، بجوار الطفل .

ونشر الصياد فوقنا الشراع الثقيل المطوى في قاع القارب ، وكذلك نمنا بين موجتين ، . . تهددنا الأرجحة غير المحسوسة لبحر هاديء لا يكاد يحرك الصاري . وعندما استيقظنا كنا في رآد الضحى .

كانت الشمس الساطعة تموه صفحة البحر بأشرطة موجهة من الذهب ، وتنعكس على البيوت البيضاء القائمة على شاطئه . مجبول . وكان ثمة نسيم عليل يهب من تلك الأرض فيجعل الشراع يخفق فوق رؤوسنا ، ويدفعنا من شرم ، إلى شرم ، ومن صخر إلى صخر ، كان شاطئه جزيرة إيسكيا الفاتنة ذا صخور مدببة عمودية ، تلك الجزيرة التي طالما ساقم بها ، وطالما سألها فيما بعد . لقد بدت لي من أول مرة سباحة في النور ، بازغة من الماء ، نائمة في زرقة السماء كأنها نفحة ينفثها عنها حلم شاعر خلال إغفاءة خفيفة ذات ليلة صيف . . .

- ١٢ -

إن جزيرة إيسكيا ، التي تفصل خليج جايتي عن خليج نابولي ، والتي تفصلها هي نفسها عن جزيرة بروسيدا قناة ضيقة ، ليست إلا جبلا واحداً

مشرعا تغمس قمته البيضاء المصعوقة أسنانها المثلومة في السماء ،
وتكسو جوانبها الوعة التي تشقها الوديان ومسارب المياه ، وأخاديد
السيول تكسوها من أعلى إلى أسفل أشجار كستناء داكنة الخضرة .
وتحمل نجومك القريبة من البحر الممائلة على الموج أكواخا ، ويوتا
ريقية ، وقرى يستخفي منها شطار كبير تحت كروم العنب . ولكل
من هذه القرى ، بحريتها ، ويدعى كذلك المرفأ الصغير الذي ترسو
فيه قوارب صيادي الجزيرة، وتخفق فيه بعض صواري السفن الشراعية،
وعوارض الصواري تلبس أشجار الشاطئ . وكرومه .

وما من بيت من هذه البيوت المعلقة على سفح الجبل ، سواء
في ذلك المستخفية في أغوار أخاديده أو المدرجة فوق نجد من تجوده ،
أو القائمة فوق رأس من رؤسه ، أو المنكئة على غاية كستنائته ،
أو المتفيسة أجام صنوبره، أو المحوطة بأروقته البيضاء والمزينة بأعراسه
المدلاة — إلا وكان في الحلم المثالي لشاعر أو لعاشق .

لم تسأم عيوننا هذا المشهد . وكان الشاطئ غزير السمك . وكان
الصيد موفقاً في ليلته . ورسونا في أحد الخلجان الصغيرة بالجزيرة لنزود
بالماء من نبع مجاور ولنسريح في ظل الصخور . وعند الأصيل عدنا
إلى نابولي راقدین على مقاعد التجديف . وكان شرع مربع موضوع
بعرض صار صغير في المقدمة ، وقد أمسك الصبي بحبله — كان كافياً
لكي نسير في محاذاة ملساء بروسيدي ورأس مسينا ، واسكني نمخر سطح
الدأما بقراربنا الصغير .

وجر الصياد العجوز والطفل ، يمعوننا ، قاربهما على الرملة وحملنا

سلال السمك إلى قبو البيت الصغير الذى كانا يسكنانه فى ظل منحور.
المارجلينا .

- ١٣ -

وفى الأيام التالية استأنفنا مهنتنا الجديدة بمرح ، ونحزنا عبابه
بحر نابولى وكسونا موجه بالزبد . وكنا نتبع الريح حيثما هبت دون
ماتدبر ، وكذلك زرنا جزيرة « كبرى » حيث لا يزال الخيال يتقزز
من شبح « تيريموس » المشحوم ، « وكوم » ومما بداها المتوارية تحت
أشجار الرند الأنيثة ، وأشجار التين البرية ، وبابا وشواطئها السكالحة
السكببية التى تخالها هدمت وابتضت مثل أولئك الرومان ، والى كانت
فيما مضى مرتعاً لشبابهم وملاذم ، وبورتيش وبومبايا الضاحكتين
تحت حمم بركان فيزوف ورماده ، وكاستلامارى التى تنعكس فى البحر
آجامها الباسقة السوداء من أشجار الرند والكستناء فتصبغ أمواج الميناء
دائمة الهمس بخضرة داكنة . وكان النوى العجوز يعرف فى كل مكان
أسرة ما من بنى حرفته ، تكرم وفادتنا عندما يصطخب البحر فيجول
دون عودتنا إلى نابولى .

شهران لم نختلف خلالها إلى فندق . عشنا فى الهواء الطلق مع
الشعب ، معيشة الكفاف كالشعب . كنا قد جعلنا أنفسنا من « الشعب »
لنسكون أقرب إلى الطبيعة . وكنا نرتدى ملابس الشعب ، وتكلم
لغته ، ولقد بثت فينا بساطة عاداته — إن أمكن القول — سداجمة
مشاعره .

وعلى كل حال لم يكلفنا هذا التجول ، صديقي وأنا ، إلا القليل .
 فقد نشأنا — كلانا — في الريف ، إبان عواصف الثورة ، التي
 صدمت أسرتنا أو بددت شملها ، فعشنا طويلا في طفولتنا معيشة
 الفلاح : هو ، في جبال جريزيفودان ، لدى مرضعة آوته خلال
 سجن أمه ، وأنا ، على تلال ماكونيه في المقر الريفي الصغير الذي آوى
 فيه أبوي ، عشهما المهدد . وليس من فرق بين الراعي أو الفلاح في
 جبالنا وبين الصياد في خليج نابولي إلا الموطن واللغة والمهنة . إن
 جرة المحراث والموجة توحيان فكرة واحدة إلى القوم الذين يشقون
 الأرض أو الماء . فالطبيعة تتخاطب بلغة واحدة أولئك الذين يقيمون
 بين ظهرانها سواء على أديم الجبل أو صفحة الدأما .

واقند أحسنا ذلك . ففي وسط هؤلاء القوم البسطاء لم نجد أنفسنا
 غرباء . فالغرائز الواحدة لحمة قربى بين بنى الإنسان . حتى وتيرة تلك
 الحياة الرتيبة كانت تروقنا . إذ تلهينا وتنومنا . وكان يشق علينا
 أن نرى دنو نهاية الصيف واقتراب أيام الخريف والشتاء هذه التي
 يتعين أن نعود بعدها إلى وطننا . وقد استبد القلق بأسرتينا ، فبدأنا
 نسدعياتنا . وكنا نصد فكرة الرحيل هذه بقدر ما يمكننا ، وكان
 بطيب لنا أن نتصور ألا يكون لهذه الحياة نهاية أبداً .

- ١٤ -

وحينذاك بدأ سبتمبر بغيثه ورعده . وكان البحر أقل هدوءاً
 ورواحة . وبانت مهنتنا — التي ازدادت مشقة — في بعض الأحيان

خطرة . كانت الانسام تشتد ، والأمواج ترغى وتزيد ، وكثيراً ما بللنا بغورائها . وكنا قد ابتعنا من الرصيف سترتين من السترات الصوفية الخشنة البنية اللون التي يطرحها نوتية نابولي وسوقها على أكتافهم في الشتاء . وأكسام هذه السترات الفضفاضة تتدلى بجانب السواعد العارية .

و ذات يوم أقلعنا من المارجلينا في بحر هادئ . هدوء الزيت ، لا تحتلج صفحته بنسمة واحدة ، قاصدين صيد سمك المرجان وبواكير التونة على شاطئ كورم حيث يدفعها التيار في ذلك الموسم وكان ضباب الصباح الأصهب ينسدل حتى يلف الشاطئ ، وينبئ عن ريح عاصفة في المساء . وكان يحدونا الأمل في أن نتفادها ويتسع لنا الوقت لنجتاز رأس مسينا قبل أن يستيقظ البحر المنفل التعسان .

وكان الصيد غزيراً . وعن لنا أن نلقى بضعة شباك أخرى ، فدهمتنا الريح ، هبت من قمة أپوميو ، الجبل الأشم الذي يربض مشرفاً على إيسكيا — مصحوبة بقصف ونقل كأن الجبل نفسه قد انقض متداعياً في البحر . في بادئ الأمر مهدت كل المساحة السائلة التي تسكت منقنا مثلاً تمهد المسلمة الحديدية الأرض وتبسط الخطوط . ثم انتفضت الموجة مهممة غائصة ، بعد أن استردت روعها من المفاجأة ، ثم ارتفعت في بضعة دقائق ارتفاعاً بلغ من مداه أنها كانت تحجب عنا من حين لآخر الساحل والجزائر .

كنا قد بعدنا عن الأرض الثابتة وعن جزيرة إيسكيا سواء بسواء .

وقطعنا نصف القناة التي تفصل رأس مسينا عن جزيرة بروسيدا الإغريقية. ولم يكن لنا معدى عن قرار واحد: أن نتوغل بحزم في القناة ، وإن أغلجنا في عبورها نعطف إلى الشمال في خليج بايا ونحتمى في أمواجه الهادئة .

لم يتردد الصياد العجوز . فمن ذروة موجة علقنا فوقها توازن القارب لحظة وسط دوامة من الزبد مائجة ، ألقى نظرة خاطفة حوله ، شأنه شأن رجل ضل طريقه فتساقى شجرة ليتبينه ، ثم هرع نحو الدفة عسائحا ، إلى مجاديفكم يا أولاد ! لا بد أن نسير صوب الرأس أسرع من الريح ، فلو أنها سبقتنا لسكننا من الهالكين ! ، فأعطناه طاعة الجسد للفرصة .

علقت عيوننا بعينيه مترصدة أقل نائمة من توجهاته ، وقد ملنا فوق مجاديفنا . وإذا كنا نارة نتساقى بمشقة منفع الأمواج الصاعدة ونارة نهوى مع زبدتها في قلب الأمواج الهابطة ، فقد حرصنا على تعجيل صعودنا أو تعويق هبوطنا بمقاومة مجاديفنا في المساء . ودهمتنا نحو عشرة أمواج متزايدة في الضخامة دفعتنا إلى أضيق جزء في القناة . بيد أن الريح كانت قد سبقتنا كما توقع الربان ، وانحصرت ما بين الرأس وطرف الجزيرة فاكتمسبت قوة بلغ من مقدارها أنها كانت ترفع البحر بما يشبه فوران حمم بركان ثائر ، وأن الموجة إذ لا تجد متسعاً للفرار بسرعة أمام العاصفة التي تطاردها ، كانت تنكسر على نفسها فتندك ، وتنساب ، فتتشقت في كل اتجاه كأنها بحر ثائر مجنون ، وإذا تسمى إلى الإفلات دون أن تجد مهرباً من القناة ، كانت ترتطم

بصخور رأس سينا العمودية ارتطاماً مروعا حيث ترفع عموداً من الزبد يصل إلينا نثاره .

- ١٥ -

كان من الحماقة محاولة اجتياز هذا الممر يمثل ذلك القارب الهش الذى يمكن لآى دفعة من الزبد أن تملأه فتغرقه . فألقى الصياد على الرأس الذى يضيئه عمود الزبد نظرة لن أنساها ما حبيت ، ثم رسم على صدره علامة الصليب ، صائحاً : إن العبور لمستحيل ، والتراجع إلى عرض البحر أكثر استحالة ، فلا مندوحة لنا من أمر واحد : أن تبلغ شاطئ بروسيديا أو نهلك ، !

أثناء اتجاهنا صوب الرأس ، كانت الريح تدفعنا من خاف ، كانت تسوقنا أمامها ؛ كنا نقبع البحر الذى يفر معنا ، وكانت الأمواج ترفعنا فوق قمتها ، وبالتالي ترفعنا معها فلا يكون ثمة فرصة لتغرقنا فى الهوة التى تحفرها . لكننا لكى نبليغ بروسيديا التى كنا نرى أنوارها تنالنا على يميننا ، كان علينا أن نشق طريقنا بعرض الأمواج ، وأن نزاق فى أوديتها ، إن صح القول ، فى اتجاه الشاطئ ، معرضين جانبي القارب للوجة ، وحوافه الواهنة للريح . وأشار إلينا الصياد أن نرفع المجاديف ، واستغل الفاصل ما بين موجة وأخرى ليوجه القارب . وأخذنا سمتنا إلى بروسيديا ، وطفونا كعورد من الطحلب تلقية موجة إلى موجة . ويتلقفه مد من مد ..

كنا نتقدم تقدماً طفيفاً ، وكان الليل قد أرشى سدوله . وضاهف من عتمته الرغام ، والرغاء ، والغيوم التي تدفعها الرياح فوق القناة في شتات ممزق مبهر . وأمر الشيخ الصبي أن يوقد أحد مشاعله ، إما لينير بعض الشيء مناورته في أعماق البحر ، وإما لينبئ بحارة بروسيدا أن في القناة قارباً في محنة ، وليسألهم ، لا نجدة وإنما دعاء .

كان مشهداً رائعاً ومروعاً ، مشهد هذا الغلام المنكود متشبهاً بإحدى يديه بالصاري الصغير القائم عند مقدمة القارب ، ورافعاً يديه الأخرى فوق رأسه تلك الشعلة المتوهجة نارها . التي ينثنى لها ودخانها بفعل الريح فيحرقان أصابعه وشعره . .

كانت هذه الشرارة الطافية ، الظاهرة فوق قمة الموج ، الخفية في أعماقه ، الوشيكة الانطفاء دائماً ، المشتعلة أبداً — كانت بمثابة رمز لحيوات الرجال الأربعة أولئك ، الذين يسكفون ، بين النجاة والحمام في ظلمات تلك الليلة وشدايدها . .

على هذا النحو مضت ثلاث ساعات طالت دقائقها طول الأفكار التي نقيسها — وارتفع القمر ، فارتفعت معه كما إعادة الريح العاصفة . ولو كان معنا أقل شراع لقلبنا الريح عشرين مرة . ومع أن حوافه القارب الخفيفة لم تكن العاصفة منا إلا قليلاً ، فقد مرت لحظات كادت

فيما أن تقتلع قاربنا من الموج اقتلاعا ، وكانت تتلاعب بنا كورقة .
جافة منزعة من شجرة . . .

ووسق القارب ماء كثيراً : لم يكن في وسعنا أن نفرغه بالسرعة
التي يهاجمنا بها . ومرت لحظات شعرنا فيها بقاع القارب يهوى من تحتنا
كالنعل الذي يهبط إلى القبر . وجعل ثقل الماء القارب أصعب قياداً ،
وأمسكنه أن يبطئ صعوده مرة عندما انحصر بين موجتين . ولو
تأخرنا ثانية واحدة لقضى الأمر .

وأولنا الشيخ ، عاجزا عن النطق ، وبعين ذات دمع ، أن نلقى
في اليم كل ما كان يزحم قاع القارب . جرار الماء ، وسلال السمك ،
والشراعان الكبيران ، والحلب الحديد ، والحبال ، وحتى حزم ملابسه
الثقيلة ، بل ستراتنا الصوفية الخشنة المبتلة : كل هذا ألقى من فوق
القارب . وتأمل النوى المكود لحظة كل ثروته هذه عائمة . وصعد
القارب ثانية ، وانطلق على قمة الأمواج بخفة ، شأنه شأن جواد
خفف وقره .

ورويداً رويداً دخلنا في بحر أودع ، يحميه نوعاً ما رأس بروسيدا
الغربي . وهدأت نائرة الريح ، واعتدل لهب الشعلة ، وشق القمر
ثغرة كبيرة زرقاء بين السحب ، وامتد الموج فانبسط وكف عن نشر
الزبد فوق هاماتنا . وشيثاً فشيثاً كان البحر قصيراً رجراجاً كأننا في
شرم يكاد يكون هادئاً ، وقطع ظل ملساء بروسيدا الأسود صفحة الأفق .
كنا في أمواه وسط الجزيرة . .

وكان يبلغ من هياج البحر عند الرأس بحيث لم نفكر في البحث عن المرفأ . فلم يكن مناص من أن نقرر النزول إلى الجزيرة من أحد جوانبها ووسط صخورها . وقال لنا الصياد وقد تعرف الشاطئ على ضوء الشعلة : « فلنكشف عن القلق يا أولادى ، فقد أنقذتنا المذراء . لقد دنونا من البر ، وسوف ننام الليلة في بئى » . . حسبنا أنه قد فقد رشده ، فمما عرفنا له مأوى آخر سوى قبوه المظلم فى المرجلينا ، ولكى نعود إليه قبل الليل ، كان علينا أن نلقى بأنفسنا ثمانية فى القناة ونجتاز الرأس ، ونواجه من جديد البحر المصطخب الذى أفلتنا للتو من قبضته .

ولسكنه ابتسم لما اعترانا من دهش ، وفطن إلى خواطرنا من عيوننا ، فاستأنف قائلا : « اطعمتنا أيها الشابان ، وسوف تبلغه دون أن تبلىنا أية موجة » . ثم أنشأ يشرح لنا أن بروسيدا هى مسقط رأسه ، وأنه مازال يملك على شاطئ الجزيرة هذا كوخ أبيه وحديقته ، وأنه كان فى بيته فى تلك اللحظة زوجته العجوز مع حفيدته الصغيرة ، أخت يبينو ، بحارنا العصى ، وطفلين آخرين صغيرين ، ليحفظوا فيه التين ، ويحفظوا السكرم الذى يبيعون عنبه فى نابولى . .

ثم أضاف قائلا : « ضربنا بحداف آخريان نشرب من ماء النبع الذى يفوق نبيذ إيسكيا صفاء » .

بثت فينا تلك الكلمات الشجاعة ، وعدنا نهدف مسافة مرحلة

تقريباً بمحاذاة ساحل بروسيدا المستقيم المزبد . وكان الطفل يرفع الشعلة ويحركها من آن لآن . وكانت تشع بصيصها المشموم على الصخور وتبدى لنا في كل مكان جداراً الاقتراب منه محال . وأخيراً ، عند رأس من حجر الجرانيت يمتد في البحر على هيئة زاوية قلعة ، رأينا الصخرة تنحني وتتجوف قليلاً كأنها الحجرة في سور ، وبحركة من الدقة انجمنها رأساً إلى الشاطئ ، ثم ألقت ثلاث أمواج أخيرة بقاربنا المنهوك بين صخرتين من الصخور حيث يفوز الزبد فوق قاع ضحل .

— ١٩ —

أحدثت مقدمة القارب عندما لمست الصخرة صوتاً أجش عالياً أشبه بترقعة لوح من خشب يسقط في شطط . وقفزنا إلى البحر وربطنا القارب ماوسعنا بما تبقى من الحبال ، وتبعنا الشيخ والصبي اللذين تقدمانا . .

صعدنا سلباً ضيقاً متدرجاً على جانب الصخرة العالية حيث حفرت بالأزميل في الحجر درجات متفاوتة ، منزلقة بفعل الطحلب . وقد استبدل بهذا السلم المقدود من الحجر الحلى ، الذى ينزلق أحياناً تحت القدم ، بعض درجات صناعية أقيمت عن طريق غرس قضبان طويلة من طرفها في ثقوب الجدار ، وتغطية هذه الأرضية المهترئة بألواح القوارب القديمة المطلية بالقار أو بحزم من غصون أشجار الكستناء المكسوة بأوراقها الجافة .

وبعد أن صعدنا هكذا ببطء نحو أربعمائة درجة أو خمسمائة ،
 ألفينا أنفسنا في فناء صغير معلق يلتف به سياج من الحجر الرمادي .
 اللون . وكان في آخر الفناء عقدان مظلمتان يبدو أنهما يفضيان إلى قبو .
 وكان فوق هذين العقدين الضخمين بانيكستان مستديران منخفضتان
 يعلوهما سقف على هيئة شرفة ، زينت حوافه بأصص حصالبان وريحان ،
 وكان تحت البانيكستين هو ريفي ، تألق فيه في ضوء القمر ، أكوازه
 أذرة معلقة كأنها ثريات من ذهب .

وكان يفتح على هذا البهو باب من ألواح غير محكمة . وعلى اليمين
 كانت الأرض التي يقوم عليها المنزل في غير توازن ترتفع إلى مستوى
 البهو . وكانت شجرة تين ضخمة وبعض عساليج العنب المنعرجة
 تتدلى منها على زاوية المنزل مخنطة أوراقها وأثمارها تحت كوى البهو —
 ومنسأباً من أغصانها المورقة لكيلان أو ثلاثة أكابيل النسياب .
 الأقمى فوق دعامة الرواقين . وكانت فروعها تتدلى فتسد شطراً من
 نافذتين منخفضتين تطلان على هذه الحديقة البسيطة ، ولولا هاتان
 النافذتان لظننت هذا المنزل الأصم ، المربع ، المنخفض ، صخرة
 رمادية من صخور هذا الشاطئ . أوركماً من أركام الحمم البارد التي
 تلتف بها أشجار السكتناء واللبلاب والكروم فتوايرها بأغصانها ،
 والتي يحفر فيها زراع الكرم في كاستلامارى أو سوراني قبواً يخلقه
 باب ، كيما يحفظ نبيذه بجوار العود الذي حمله .

ولما كانت أنفاسنا قد تقطعت نتيجة للصعود الطويل السريع
 الذي صعدناه ، ولثقل مجاديفنا التي حملناها على عواتقنا ، فقد توقفتنا

هنيئة ، الشيخ ونحن ، لنستريح ولنسترد أنفاسنا في هذا الفناء بيد
أن الصبي ألقى مجدافه على كومة من العشب ، وصعد المدرج بخفة .
وطفق يبدق على إحدى النافذتين بشعلته التي ما برحت مؤرثة . منادياً
جدته وأخته بصوت مرح :

وأماء ! أختاه ! مادري ، سوريلينا . جانيانا ! جرازيل ! هبوا
افتحوا ، ها نذا . وأنى وبمض الغرباء معنا .

سمعنا صوتاً نصف يقظان لكن كان واضحاً . رقيقاً . يطلق مرتبكا
من داخل المنزل بعض صيحات من الدهشة . ثم انفرج مصراع إحدى
النافذتين نصف انفراج . وقد دفعته ذراع حارية بضة بارزة من كم
يتموج . ورأينا على ضوء الشعلة التي يرفعها الصبي نحو النافذة . وهو
يشب على أصابع قدميه ، محياً صبيحاً ساحراً لفتاة كاعب يزج بين
المصراعين وقد زادا انفراجا .

لقد فرجت جرازيل إبان نومها بصوت أخيها فلم يتبأ لها الفسكو
ولا الوقت لكي ترتب ثيابها . واندفعت صوب النافذة حافية القدمين
متهدلة الثياب بالحالة التي كانت عليها في مخدعها .

كان نصف شعرها الفاحم المرسل يتهدل على أحد خديها . والنصف
الآخر يلنف حول جيدها تدفعه الريح التي تهب بشدة إلى الناحية
الآخرى من كتفها . فيرتطم بالمصراع الموارب ثم يرتد ليصفق بحياها
ويسيطه مثل جناح غراب نصف به الماصفة .

كانت الفتاة تفرك عينيها بظفر يديها ، رافعة مرفقيها ، منتزعة كتفيها

يمثل تلك الحركة الأولى التي يأتيها طفل يستيقظ ويروم أن يطرد النوم .
كان قيصها ، المعقود حول عنقها ، يشف عن قوام فارغ نحيل لا تكاد
تتشكل فيه تحت الثوب بواكير توجات الشباب . وكان لعينها
النجلاوين ذلك اللون الناثه بين السواد الداكن وزرقة البحر ، الذي
يلطف منا الإشعاع بعذوبة النظرة ، ويمزج في عيون المرأة بنسبة
متساوية حنان الروح بمحبة الشهوة : صيغة علوية تشرها نساء آسيا
وإيطاليا من لهيب نارهن اللافح ، ومن لازورد سمائهن وبحرهن وليلهن .
الصافي . وكان الخدان عمتائين ملفوفين ، أثباين ، مشربين بصبرة من الجو
مكسوين بمسحة من شحوب لكنه ليس شحوب الشمال ولبد العلة بل
بياض الجنوب ولبد الصحة الشبيه بلون المرمر المعرض للمواء والموج
منذ عصور .

أما الفم ، الذي كانت شفتاه أشد انفراجاً واكتنازاً من شفاذ
نساء مناطقنا ، فكانت ترسم عليه علائم السداجة والطيبة . وأما
ثناياها القصيرة ، المتألثة ، فكانت تتألق على ضوء الشعلة الرجراج
تألق الأصداف على شاطئ البحر تحت لمعة المساء في وهج الشمس . .

وبئنا كانت تتحدث إلى أخيها الصغير ، كانت ألفاظها الحية .
ذات الجرس ، التي يذرو النسيم نصفها تصافح آذاننا في مثل وقع
الموسيقا .

وانتهل سجاؤها المتحرك تحرك ضوء الشعلة التي تنيره . انتقل في دقيقة واحدة من الدهش إلى الفزع . ومن الفزع إلى المرح . ومن الحنان إلى الضحك . ثم لمحننا ورام جذع شجرة الزين الضخمة . فراجعنا من النافذة مستحيين وتخلت يدها عن المصراع الذي طفق يصطفيق بالجدار بلا عائق . ولم تغب من الوقت إلا ريثما توقظ جدتها وتردئ بعض ثيابها . ثم جاءت تفتح لنا الباب . وتعانق جدتها وأخاها في انفعال شديد .

- ٢٠ -

وما لبثت الجدة أن ظهرت ممسكة بيدها قنديلا من الفخار ينير وجهها النحيل الشاحب وشعرها الأبيض بياض شلال الصوف المسكورة على المنضدة حول مغزلها .

وقبلت يد زوجها وجبين الصبي . ثم رويت كل القصة التي تتضمنها هذه السطور في بضع كلمات . وبضع إشارات تبادلها أفراد تلك الأسرة المقلّة . ولم تسكن نسمع كل شيء . فقد انتحينا جانباً كيلا نعرقل فضفضة مضيقينا القلبية . كانوا فقراء وكنا غرباء : فكنا مدينين لهم بالاحترام .

وكان موقفنا المتحفظ في المؤخرة وعلى مقربة من الباب ينبتهم بهذا الاحترام في سكون .

وكانت جرازيل تلقى علينا من آن لأن نظرة دهش وكأنهم مستغرق في حلم . وعندما انتهى الأب من روايته ، جثت الجدة بجوار المدفأة ،

وصعدت جرازيل إلى الشرفة ، وأحضرت غصن حصالبان ، وبضعة
من أزهار البرتقال ذات النجوم الكبيرة البيضاء ، وتناولت مقعداً ،
وعلقت الطاقة بدبايس طويلة جذبتها من شعرها ، أمام تمثال صغير
للعدراء مشوب بسواد من الدخان ، موضوع فوق الباب ، وموقد
أمامه مصباح . ففهمنا أن هذا لإجراء حمد وثناء لحاميتها الإلهية إذ
أنقذت جدها وأخاها ، وأخذنا نصيبينا من شكرها وعرفانها .

- ٢١ -

كان داخل المنزل لا يقل تجرداً ولا ممانلة للصخر عن خارجه . لم يكن
ثمة سوى الجدران غير المطلية ، والمبيضة فقط بقليل من الجير . وكانت
المظاريب (السحالي) التي أيقظها النور تنسرب وتخشخش في صدوع
الأحجار وتحت الأوراق والأحطاب التي اتخذت مضاميع
للأطفال الصغار . وكانت أوكار عصافير الجنة التي يرى المرء الرءوس
الصغيرة السوداء تبرز منها والعيون القلقة تبرق فيها — كانت معلقة
على عروق الخشب المغطاة بالثقش التي تكون السقف . وكانت جرازيل
وجدتها تنامان معاً في الغرفة الثانية على سرير واحد مغلى بتف
من قاش الشراع . وكانت سلال المأكلة وبرذعة بغل معلقة على أرضية
الغرفة .

والنفث الصياد صوبنا في مسحة من خجل ، ومشيرا لنا بيده إلى
حقارة مسكنه ، ثم اقتادنا إلى الشرفة ، مقصورة الشرف في الشرق وفي
جنوب إيطاليا . وبمعاينة الصبي وجرازيلا أعد ما يشبه الظلة عن
طريق إسناد أحد طرفي مجاديفنا على سياج الشرفة والطرف الآخر على
الأرضية . وغطى هذا الخبأ ببعض حزم من أشجار الكستناء المقطوعة
حديثا من الجبل . ثم فرش تحت هذه الظلة بضغ حزم من الأحطاب ،
وجاءنا بكسرتين من الخبز ، وبعض الماء القراح والتين ، ودعانا
إلى النوم .

وكان من شأن متاعب اليوم وانفعالاته أن جعلت نومنا مباحثا
وعميكا . ولما استيقظنا كانت عصفير الجنة تنصيح حول فراشنا
وتسف الشرفة لتختطف منها فضلات عشائنا ، وكانت الشمس التي
علت في السماء تلهب حزم الأوراق التي اتخذنا منها سقيفة فتجعلها
كالفرن .

لبينا طويلا مستلقين على الأحطاب ، في حالة الإغفاء هذه التي من
شأنها أن تهيب اللا فسان المعنوي أن يشعر وأن يفكر قبل أن تواتي
الشجاعة الإنسان الحسي أن ينهض وأن يعمل . وتبادلنا بضغ كلمات
في همهمة مبهمة قطعها فترات سكون مستطيلة ، وراحت أضغاث أحلام
صيد أمس ، والقارب المتأرجح تحت أقدامنا ، والبحر الهائج الهادر
والصخور الزلقة الكأداء ، وبحيا جرازيل بين مصرعين في ضوء
الشعلة : كل هذه الصور كننا نراها تنشيك وتتلبد وتمزج .

١ خرجنا من هذه الغفوة. أشجع الجدة المسنة وتبكيها إذ كانت
تحدث إلى زوجها في المنزل . كانت المدخنة التي تحترق فتحتهم
الشرقة تحمل إلينا الصوت وبعض الألفاظ .

وكانت المرأة البائسة تندب وتولول على خسارة الجرار ، والحاميه
والحبال الجديدة ، وعلى الأخص الشرايين الجليين المغزوين بيدها ،
والمسجوعين من قنبها ، وقد بلغ من وحشيتها أن رهيناها جميعا لكي
تنفذ حيواتنا .

كانت تقول للشيخ الحطيم الواجم الملجم : ماذا دهاك حتى
تستصحب هذين الغربيين ، هذين الفرنسيين ؟ أما كنت تدري .
أنهما وثيان ، وأنهما في ركبهما النحاس والزنقة ؟ لقد عافبك
القديسون ، فبددوا ثروتنا ، ألا فلتشكرهم على أنهم لم يدمروا —
ووحنا .

لم يكن الرجل التعس يدري بماذا يجيب . بيد أن جرازيللا ،
بالإباحة وفراخ الصبر الخولين لطفل تسمح له جدته بكل شيء ، انبرت
ثائرة على هذا التأنيب الجائر ، وظاهرت الشيخ فردت على حديثها قائلة :
« من الذي قال لك إن هذين الغربيين وثيان ؟ هل للوثنيين مثل هذا
المظهر من الإشفاق على الفقراء من الناس ؟ هل يرسم الوثنيون مثلنا
هلامة الصليب أمام صور القديسين ؟ وبعد . . أقول لك إنى رأيتهم

أمس ، عندما جثوت شاكرة لله ، وعندما علقت أنا الطاقة في تمثال
 العذراء . رأيتهما يطأ طئان الرأس كأنهما يصليان ، ويرسمان على
 صدرهما علامة الصليب ، بل لقد لمحت دمة تترقق في مقلة أحفرهما
 سنائم تنحدر على يده . فأجابتها السيدة العجوز في حدة : لقد كانت
 قطرة من ماء البحر انحدرت من شعره ، فردت جرازيللا في غضبة وأنا
 أقول لك إنها كانت دمة : فإن الريح التي كانت تعصف كان لديها متسع
 من الوقت لكي تجفف شعرهما من الساحل لغاية قمة الشاطئ . ولكن
 الريح لا تجفف القلب . وبعد . فإني أكرر لك أن عيونهما كانت
 مخضلة .

فأدركنا أن لنا في الدار نصيرة قادرة ، لأن الجدة لم ترد ولم نعد
 نقتنم متذمرة .

- ٢٢ -

عجلنا بالنزول لنشكر الأسرة المعلقة على ما أولتنا من كرم وقادة .
 ووجدنا الصياد ، والأم العجوز ، وبيبو ، وجرازيللا ، بل الأطفال
 الصغار أيضاً متأهبين للنزول تجاه الشاطئ . لزيارة القارب المتروك
 أمس ، ورؤية ما إذا كان مشدوداً بما يكفي لمواجهة البحر الرديء .
 لأن العاصفة كانت لا تزال مستمرة ، نزلنا معهم ، غاضى الجبين ،
 خجولين ، شأننا شأن ضيوف حلوا في أسرة قسبيوا لها حادئاً مشموا ،
 ليسوا واثقين من المشاعر التي يضمروها لهم أهل الدار .

كان الصياد وزوجته يقدماننا بوضع خطوات ، تقفوهما جرازيللا

مسكة أحد أخويها الصغيرين بيدها، وحاملة الآخر على ذراعها، وتبعناهم
فحن في المؤخرة صامتين. ولدى آخر منحى لأحد المتدرجات يرى الرافق
منه ملساء الشاطئ* التي كان تنوء صخرة لا يزال يحول دون أن نراها،
سمعنا صرخة ألم تنطلق من قم الصياد ومن قم زوجه في وقت واحد .
ورأبناهما يرفعان سواعدهما العارية صوب السماء ، ويقلبان أكتفهما
في تشنجات اليأس، ويلطمان جبهتهما وعيونهما بقبضة اليد ، وينزعان
خصلًا من شعرهما الأشيب جعلت تذروها الريح وهي تدوم بين
الصخور . .

ولم نلبث جرازيل والأطفال الصغار أن خلطوا أصواتهم بهذه
الصراخ . هرع الجميع كالجانين يجتازون آخر درجات المتدرج صوب
صخور الشاطئ* ، وتقدموا لغاية حواشي الزبد التي تدفعها الأمواج
العانية إلى البر ، وهووا على الساحل ، بعضهم جاثيا على ركبتيه ،
والبعض الآخر منكفئًا على وجهه ، والسيدة العجوز تعتمد وجهها
براحتها وتعقر رأسها في الرمل الرطب .

كنا ننأمل مشهد اليأس هذا من فوق آخر رأس مستدق دون أن
توانينا القوة على التقدم أو التراجع . كان القارب ، وقد شد إلى
الصخرة ، ولسكن دون هلب في المؤخرة ليحتجزه ويستبقه — كان
قد انتزعه الموج أثناء الليل وتحطم على أسنة الصخور التي كان
مفروضًا أن تحميه . كان نصف القارب المنسكود ما قى* مشدودًا
بالحبل إلى الصخرة حيث ربطناه البارحة . كان يتخبط في أنين مشوم

شبيه بصوت الآدميين عند النزح الأخير إذ يخفت ويثول إلى تهديج
مختنق يائس .

وكانت الأجزاء الأخرى من جدران القارب ، والمؤخرة ،
والشرع ، والجوانب ، والألواح المطلية منثورة على الساحل شذر مذرة
شديدة بأشلاء الجثث التي مزقتها الذئاب الضارية عقب معركة .

وعندما بلغنا الساحل كان الصياد الشيخ مشغولا بالعدو من حطام
إلى حطام . كان يرفعها ويتملى فيها بعين جفت مآقيا ، ثم يدعمها تسقط
تحت قدميه ، ويبعد . وكانت جرازيلان تنحب ، جالسة على الأرض ،
دافئة رأسها في مشرعا . وكان الأولاد يركضون بسميتانهم العارية
في البحر صائحين وراء أنقاض الألواح . محاولين توجيهها نحو
الساحل .

أما السيدة العجوز فلم تسكف عن الشيع وعن التحدث وهي تلتشج .
لم تلتقط أسمعنا سوى أصوات مبهمة وأنات مقطعة تشق الهواء شقا
وتفري القلب فريا . كانت تصرخ شاتمة مشيرة إلى الأمواج بقبضة
يدها : د أيها البحر المتوحش .. أيها البحر الأصم .. أيها البحر الألعن
من شياطين جهنم .. يا من لا قلب لك ولا شرف .. لينك أخذتنا
نحن .. نحن جميعا .. ما دمت قد سلبتنا مصدر قوتنا .. خذ .. خذ ..
خذ .. خذني على الأقل مقطعة الأوصال ، ما دمت لم تأخذني
بأكلي . . .

وبينا كانت تنطق بهذه الكلمات ، كانت قهض على قعدتها ، وترى
 في البحر قطعة من ثوبها وخصلا من شعرها . وكانت تلوح للبحر مهددة
 متوعدة ، وتطأ الزبد بقدميها ، وبعد أن انتقلت من الهياح إلى النواح ،
 ومن القشنج إلى الحنو ، عمدت إلى الجلوس على الرملة معتمدة بجيبتها
 بيديها ، ناظرة إلى الألواح المنفصلة ترتطم بالصخرة وهي باكية
 منتحبة . كانت تصيح كأن هذا الحطام أوصال مخلوق عزيز لا يكاد
 يكون مجرداً من الشعور : « أيها القارب التمس . . أهذا هو المصير
 الذي كنّا ندين به لك ؟ أفلم يكن واجبا علينا أن نهلك معك ؟ أن
 نهلك معا كما عشنا معا ! أن نهلك هنا أشلاء ، حطاما ، ترابا ، صارخين ،
 أمواتا ، على الصخرة حيث ناديتنا طول الليل ، وحيث كان من واجبنا
 أن ننقذك ! ترى ما رأيك فينا ؟ لقد خدمتنا أحسن ما تكون الخدمة ،
 فإذا بنا نخذلك ، وندخل عنك ، ونضيعك . نضيعك هنا ، على قيد
 خطوات من المنزل ، وعلى مسمع من صوت سيدك ! ملق على الشاطئ »
 بكته كلب أمين يطرحه الموج عند قدمي سيده الذي أغرقه !

ثم خنقت عبراتها صوتها ، ثم أنشأت تعدد مزايا قاربها واحدة
 فواحدة ، وتخصى كل ما كفهم من مال ، وكل ما كانت تربطها بهذا
 الحطام التمس الطافي من ذكريات . كانت تقول : أكان لأجل هذا أننا
 رغمناه أحسن ترميم وطيناء خير طلاء بعد صيد التونة الأخير ؟ أكان
 لأجل هذا أن ابني البائس — قبل أن يقتضى نحيبه ويخلف لي أولئك
 الأطفال الثلاثة بلا أب ولا أم — قد شيده كله تقريبا بيده بأذلا
 مزيد عنايته وغاية حبه ؟ عند ما كنت أجيء لأخذ السلال من قاعه

كنت أتعرف ضربات وقدمه ابني في الخشب ، فأقبلها تمجيداً لذكره .
وما هي ذى مستقبلها الآن كلاب البحر وسرطانه . .

خلال أيام الشتاء كان قد حفر هو نفسه بمدية صورة القديس
غرنسوا على لوح من الألواح ثبته في المقدمة لتقيه شر الجو الرديء .
يا للقديس القامى الفؤاد ! كيف أبدى شكره وعرفانه ؟ . . ماذا فعل
بابي ، وبزوجه ، وبقاربه الذى تركه لنا من بعده لتكسب قوت
أولاده البؤساء ؟ وكيف وثق نفسه هو ، وأين هي صورته ، أعبوة
الأمواج ؟ . .

وصاح واحد من الطفلين ، وهو يلتقط على الشاطئ ، من بين
صخرتين ، شظية من القارب انحسرت عنها موجة دأما . . أما . .
هاهو ذا القديس . . وإذا المرأة التعبة تنسى غضبا كله ، وتخرصاتها
كلها ، وتغذف نفسها في الماء حافية نحو الطفل ، وتناول شظية اللوح
التي حفرها ابنها ، وتلصقها بشفتيها ، وتغرقها بعبراتها . ثم ذهبت فتعدت
ولاذت بالصمت ،

- ٢٣ -

عائنا يديو والشيخ على جمع جميع قطع القارب واحدة واحدة .
وجدنا قاعدته المبتورة أقرب إلى الساحل مما كانت ، وأقنا من حطامه
هذا كومة مازال يمكن أن ينزفع ببعض ألواحها وحدائدها أولئك
القوم البؤساء . ودحرجنا بعض الحجارة الضخمة ووضعناها فوقها
حتى لا تبدد الأمواج إذا علت بقايا القارب العزيزة هذه ، وعدنا

أدراجنا إلى المنزل سائرين في أسى وعلى مبهدة وراء مضيقنا . ولم
نمكن غيبة القارب وحالة البحر تسمحان لنا بالرحيل .

وبعد أن تناولنا ، وقد غصصنا العارف ولم ننس ببنت شفة ،
كسرة من الخبز وبعض لبن الماعز الذي جاءتنا به جرازيل على كشب
من النبع ، تحت شجرة التين ، تركنا المنزل لمناحتة ، وانطلقنا نتجول
بين عرائش الكرم العالية وتحت شجر الزيتون في هضبة الجزيرة
الشاهقة . .

- ٢٤ -

كنا لا نؤكد نتحدث ؛ صديقي وأنا ، لكن كانت تراودنا فكرة
واحدة ، فسلطنا بالفريزة كل الدروب المفضية إلى رأس الجزيرة
الشرقي والتي لابد توصلنا إلى مدينة بروسيدا القريبة . وأعادنا عدة
مرات إلى الطريق الصحيح بعض رعاة المساعز ؛ وبعض الفتيات
المرتديات زياً يونانياً ، اللاتي صادفناهن حاملات فوق رؤوسهن الزيت .
وبلغنا المدينة بعد مسيرة ساعة . .

وأخيراً قال لي صديقي وهذه امرى مغامرة مؤسفة . فأجبت
قائلاً : يجب أن نحولها إلى فرحة لأولئك القوم الأخيار ، فاستأنف ،
وهو يتخسش من منطلقته الجلدية عدداً طلياً من الدنانير الذهبية . كنت
أفكر في ذلك . . . — وأنا أيضاً ، بيد أنه ليس في كيس نقودي
سوى خمسة دنانير أو ستة ، ومع ذلك فقد تسببت في نصف الشر .
فلا مناص من أن أتحمل نصف التعويض . فقال صديقي : أنا أكثر .

منك مالا ، ولى رصيد لدى صاحب مصرف فى نابولى . سأقدم كل مايلزم . وسوف نسوى حسابنا فى فرنسا .

- ٢٥ -

وبينا نحن نتحدث على هذا المنوال ، كنا نهبط بخفة فى شوارع بروسيديا المنحدرة . ولم نلبث أن بلغنا البحرية ، فكذلك يسمى الساحل المجاور للشرم أو للمرفأ فى الأرخييل وعلى شواطئ إيطاليا . كان الساحل مغطى بقوارب إيسكيا وبروسيديا وناپولى التى اضطرتها عاصفة البارحة إلى التماس ملاذ فى أمواجه . وكان النوتية والصيدون ينامون فى وهج الشمس ، وفى هدير الموج المستهدى ، أو يتحدثون فى جماعات جلوساً على الرصيف . ومن ثوبينا ، وقلنسوتنا الصوفيتين الخراوين اللتين تغطيان شعرنا ، حسبونا فتيتين نوتين من توسكانيا أو جنوة أنزاتهما فى بروسيديا إحدى السفن التى تحمل الزيت أو النفط من إيسكيا .

جسنا خلال البحرية ، نبحث بالعين عن قارب متين حسن العمرة . والعدة ، يستطيع شخصان أن يديره بسهولة ، وتكون مقابله وقواه أقرب ما يمكن إلى القارب الذى فقدناه . ولم نجد مشقة فى العثور عليه . كان يتبع صياداً غنياً من الجزيرة يملك قوارب كثيرة غيره . ولم يكن هذا القارب قد استعمل بعد سوى بضعة أشهر . فقصدها إلى المالك ، الذى أرشدنا إلى مرساه صيدية الميناء .

كان هذا الرجل مرحاً ، مرهف الحس ، طيباً . وقد تأثر للقصة .

لأننى سردناها عليه بشأن كارثة الليل ويأس ابن جلده البائس . إلا أنه لم يخفض قرشاً من ثمن قاربه ، وإن لم يغال قط فى قيمته ، وتمت الصفقة لقاء اثنين وثلاثين ديناراً ذهبياً دفعها له صديقى نقداً . وبوساطة هذا المبلغ أسمى القارب وعدة جديدة تماماً من أشرعة ، وسلال ، وحبال وهلب حديدى - أصبح هذا كله ملكنا .

بل إننا استكلمانا تجهيزه بأن اشترينا من أحد دكاكين المرفأ معطفين من الصوف الأصهب ، أحدهما قشيش والآخر للصبي ، وأضفنا إليه بعض الشباك من مختلف الأنواع ، وبعض سلال السمك ، وبعض الأدوات المنزلية الغليظة مما تستعمله النساء . واتفقنا مع تاجر القوارب على أن ندفع له فى اليوم التالى ثلاثة دنائير ذهبية إذا اقتيد القارب فى اليوم نفسه إلى النقطة التى عيناها على الشاطئ . وإذا كان النوء يبدأ ، وأرض الجزيرة المرتفعة تحمى البحر من الريح فى هذه الناحية نوحاً ما ، فقد تعهد الرجل بذلك ، وقفلنا راجعين براً إلى دار أندريا ..

- ٢٦ -

جملنا نقطع الطريق الهوينا ، نجلس تحت الأشجار ، ونستظل فى الخائل ، نتكلم ، ونحلم ، ونساوم جميع فتيات بروسيدا فيما يحلمن من سلال التين ، والبشملة ، والغنب ونفسح الوقت للساعات كيما تمر . وإذا بنا ، من فوق رأس من الرءوس ، نبصر قاربنا ينسرب متلصصاً تحت ظل الشاطئ ، فغذينا المسير لىكى نفصل فى وقت واحد مع المجدفين .

لم يكن يسمع السامع خطوة ولا صوتا في البيت الصغير والمكرمة
التي تحيط به . وكانت حمامتان جميلتان ذواتا أرجل كبيرة يكسوها
الزغب وأجنحة رقطاء ، تلتقطان حب الأذرة على سور الشرفة —
كانتا علامة الحياة الوحيدة التي تدب في البيت . وصعدنا إلى السطح
في غير ما ضجيج ، فوجدنا الأسرة فوقه تأخذها سنة من سبات عميق .
وكان الجميع ، خلا الطفلين اللذين استراح رأساهما الجيلان جنباً إلى جنب
على ساعد جرازيل ، ينامون في حالة الإنهاك الناشئ عن فرط
الأم .

كانت الأم المعجوز معتمدة رأسها بركبتها ، وتنفسها الهادي
يبدو كأنما لا يزال مختلطا بالنشيج .

وكان الأب مستلقيا على ظهره ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره ،
في وهج الشمس .

وكانت عصافير الجنة تسف شعره الرمادي اللون في حومانها الصريع ،
وكان الذباب يغطي جبينه الناضح بالمرق . وكان خطان مخفوران
متعرجان ومنحدران حتى فم الرجل ينان عن أن قواه انهارت وأنه وجد
السكينة في الدموع .

وقد فرى هذا المشهد قلبينا فرحاً ، بيد أن فكرة السعادة التي سوف
نردها لأولئك القوم التمساء كانت لنا سالوة وعزاء ، أية ظننا ، وأقينا
فوق أقدام جرازيل وأخويها الصغيرين ، على أرضية السطح ، ما كنا
قد وسقناه في الطريق من خبز طازج ، وجبن ، وقديد وعنب ،
وبريقا وتين . ولم تجرؤ الفتاة والطفلان على النهوض في غمرة هذا
الغيث من الخير الوفير الذي انهمر حولهم كأنما من السماء . وشكرنا

الآب نياة عن أمرته . وشاهدت الجدة كل ذلك بعين خافية كالحة
وكان التعبير المرتسم على سياتها أقرب إلى الخنق منه إلى عد
المبالاة .

قال صديقي للشيخ : هيا ، يا أندريا ، يجب ألا يبكي الرجل من قير
ما يمكن أن يعرضه شيء من العمل والشجاعة . فشة ألواح في الغايات
والآجام وأشرعة في القنب الذي يثبت . وما من شيء لا يثبت من
جديد إلا حياة الإنسان التي قبلها الأحران . ولما يوماً واحداً من
الدموع ليستغفد من القوة ما لا يستغفده عام من العمل . هيا انزل معن
وبرققتك زوجك وأولادك . نحن نوثقتك ، وسوف نعاونك على أن
ترفع هذا المساء إلى الفناء حطام قاربك الغريق . وسوف تصنعون منه
أسباجاً ، وأسرة ، ومناضد ، وأثاثاً للأسرة . وسوف يسعدك يوماً
أن تنام في شيخوختك هادئاً وسط هذه الألواح التي طاماهم مدتك فوق
الأمواج : فغمغمت الجدة في صوت جامد ، ليها تكفي فقط اصتبح
نعوش لنا .

— ٢٧ —

وعلى أثر ذلك نهضوا ، وتبعونا جميعاً هابطين متدرج الشاطئ على
صهل ، ولكنا لاحظنا أن منظر البحر وهدير الموج كان لها في نفوسهم
وقع سيء ، وإن أحاول وصف ما تولى أولئك القوم من دهش واغتياب ،
عند ما رأوا من فوق آخر درجات المتدرج . القارب الجديد الجميل
يتلألأ في وهج الشمس وقد جر على الرملة بجوار حطام القارب القديم ،
وقال لهم صديقي : إنه لكم ، لقد خروا جميعاً ساجدين كأنما انقضت

عليهم صاعقة واحدة من الغبطة . كل منهم على الدرج الذي كان عليه ،
ليشكروا الله ، قبل أن تسعفهم ألقاظهم لكي يشكرونا نحن . واسكن
كان حسبنا من الشكر سعادتهم .

ونفضوا ثانية على صوت صديقتي الذي ناداهم . وعدوا في انزه إلى
القارب . وداروا حوله أول الأمر عن بعد وبتهيب كما لو كانوا
يوجسون خفية أن يكون شيئاً وهمياً وأن يتلاشى بما يشبه السحر . ثم
دنوا منه عن كثب . ثم أنشأوا يلسونه ويرفمون اليد التي لمسته إلى
جباههم يشفاههم . وأخيراً جعلوا يطلقون عبارات الإعجاب والاعجاب
ثم شبكوا أيديهم في سلسلة ، ابتداء من السيدة العجوز إلى الأطفال
الصغار ، وراحوا يرقصون حول القارب .

- ٢٨ -

كان بيرو أول من ركب متنه . جلس في المحل الملاصق للقدمة .
وجعل يفرج من قاعه كل العدة التي ملأناه بها واحدة واحدة : الحلب ،
الحبال ، الجرار ذات الأذان الأربع ، الأشرطة الجديدة الجميلة ، السلال ،
المعطفين الواسعي الأكم . كان يرئ الحلب ، ويرفع المجاديف فوق رأسه
ويشمر القماش . ويفرك بين أصابعه وير المعطفين الخشن . ويرى جدته
وجده وأخته كل هذه السكنوز وهو يصيح ويرقص غبطة وجذلاً .
وكان الأب والأم وجران بلا يكون ويستعبرون وهم ينقلون
نظرهم بين القارب وبيننا تباعاً .

وكان النوتية الذين أوصلوا القارب قد تواروا خلف الصخور
يكون أيضاً . كان الجميع يشكرونا ويثنون علينا . وأقربت جران بلا

من جدتها . غاضة جبينها . مظهرة مزيداً من الجدة في شكرها . وسمعتها
تهمس مشيرة لآلينا بأصبعها :

« كنت تقولين إنهم وثنون . وكنت أقول لك إنهم أخلاق بأن
يكونوا ملائكة فن . منا يا ترى كان على حق ؟ ، فارتمت السيدة العجوز
على أقدامنا . والنسب منا أن نصفح عن شكوكها . ومنذ تلك الساعة
أحببنا قريباً بقدر ما كانت تحب حفيدتها أو يبيو .

— ٢٩ —

صرفنا نوتية روسيدا بعد أن نقدناهم الدنانير الثلاثة المتفق عليها
وتكفل كل منا بأداة من الأدوات التي أزدحم بها قاع القارب . وحملنا
إلى البيت كل ثروات الأسرة السعيدة هذه بدلا من حطام مالها . وفي
المساء عقب العشاء ، وعلى ضوء المصباح ، نزع يبيو من وسادة سرير
جدته شظية الخشب المحطمة التي كان أبوه قد حفر فيها صورة القديس
فرنسوا فسواها مربعة بالمنشار ، ونظفها بمديته ، وصقلها وطلاها حتى
استحالت جديدة . وأزمع أن يلبثها في اليوم التالي في طرف المقدمة
الداخل . حتى يكون في القارب الجديد نفحة من القارب القديم . كذلك
كان الناس في الزمن الحالى عند ما يشيدون معبداً مكان معبد آخر يعنون
بأن يدخلوا في بناء البنية الجديدة مواد المعبد القديم . أو على الأقل
عوداً من أعمدته . حتى يكتسب الجديد نفحة من العراقة والقداسة .
وحق يكون للذكرى — البالية الغليظة في ذاتها — رعبها وهيبها
في القلب بين آيات المحراب الجديد . إن الإنسان هو الإنسان حيثما
كان . إن طبيعته المرفهة مجبولة دائماً على نفس الغرائز سواء تعلق الأمر

بالبارثينون أو بكثيسة سان بيير في روما . أو بقارب حدير اصياد
على ملساء شاطئ يروسيدا . »

— ٣٠ —

أهل تلك القيلة كانت أسعد الليالى التى كتبتهما العناية الإلهية لهذا
البيت منذ أن قدم من الصخر إلى أن يؤول إلى تراب . لقد نمنا على
لفحات الريح لأشجار الزيتون . وعلى حدير الموج على الشاطئ وعلى
ضوء القمر يسبح شرفتنا . وعند ماصحونا كانت السماء صافية الأديم
كالبلور المصقول . والبحر غامقاً مخططاً بالزبد كأن الماء يتصب عرفاً
من سرعة الركض وفرط التعب . بيد أن الريح . وهى أكثر عتواً .
كانت تعصف دائماً . وكان النشار الأبيض الذى تركه الأمواج على
طرف رأس مسينا يزداد عن البارحة ارتفاعاً . كان يفرق شاطئ كوم
بأسره فى مد وجزر من الضباب البراق لا يكشف عن الارتفاع والانحدار
ولم يكن الرائي يرى أى شراع يخفق على صفحة خليج جايتى ولا خليج
بايا . وكانت خطاطيف البحر تفضع الزبد بأجنحتها البيضاء . وهى
الطائر الوحيد الذى ينشئ فى البساطة . ويصيح غبطة خلال حوادث
الغرق ، شأنها شأن أهل خليج ترياسيه الملعونين أو ائلك الذين يرقبون
فريستهم من السفن المشرقة على الغرق .

شعرنا دون أن نفصح بغبطينة دقة لأن يحبسنا العلة من الردى
هكذا فى بيت الصياد وكرمه ، فقد أتاح لنا ذلك أن نتلذذ بموقفنا
وأن نستمتع بنبهة تلك الأسرة المعلقة التى تعلقها بها الأطفال .
استمتعنا بالرياح والأنواء هنالك تسعة أيام كاملة وعلما تمنينا .

وأنا على الأخص ، ألا تنتهى العاصفة قط ، وأن ناجئنا ضرورة
 قهرية وحتمية إلى إلتقاء منين عدة فى المسكان الذى وجدنا فيه أنفسنا
 مأخوذين وسعداء إلى هذا الحد . كانت أيماننا على كل حال تجرى
 دون أن نشعر بها وعلى نسق رتيب . وهذا أصدق برهان على أن النذر
 القليل يكفى للسعادة حينما يكون القلب فتيا ويتمتع بكل شئ . كذلك
 فإن أبسط الأغذية تسند وتجدد حياة الجسد عندما ترضى عليها الشهية
 ذكمة وتكون الأعضاء سليمة غضة .

- ٢١ -

أن نصحو على زقزقة عصافير الجنة تسف سقفنا المقام من الأوراق
 فوق الشرفة حيث نمنا ، أن نسمع صوت جرازىلا الطلغولى وهى تشدو
 فى السكرمة شدوا خفيتم غفافة أن تغلق نوم الغرباء ، أن نزل مهرولين
 إلى الشاطئ اسكى نطس فى البحر ونسبح بضغ دقائق فى شرم صغير
 يتألق رمله الدقيق من خلال شفوف ماء عميق ، لا تنفذ إليه حركة المد
 العالى ولا زبدته ، ثم أن نصعد إلى البيت على مهل ونحن نجفف فى
 الشمس شعرنا وندفى أكتافنا المبتلة من الحمام ، أن نطرق فى السكرمة
 بقطعة من الخبز والجبن الأبيض نحضرها الفتاة لنا وتشاطرنا قطعها ،
 أن نشرب ماء النبع الصافى الزلال الذى تغترقه جرازىلا وتملا به الجرة
 للصغيرة التى تميلها على ذراها وقد توردت وجنتها حينما تلتصق شفاهنا
 بفوهتها ، ثم أن نعاون الأسرة فى ألف عمل ريفى بسيط بالمنزل
 والحديقة ، فنصلح أجزاء السور الذى يلتف بالسكرمة ويسند الشرفة

وأن نزرع الأحجار الضخمة التي انحدرت في الشتاء من فوق هذا السود
على أعواد السكروم الصغيرة ، واقتحمت مكان القليل من المزروعات
الممكن استنباتها بين الأعواد ، وأن نحمل في السلال القرع العسلي
الضخم الذي كانت الواحدة منه حمل رجل ، ثم أن نقطع حرائشه التي
تسكسو الأرض بأوراقها العريضة التي تعرقل السير بين فروعها المتشابكة
وأن نشق بين كل صنف من الأعواد ، تحت الخنازل العالية ، قناة صغيرة
في الأرض الجافة كي يتجمع فيها ماء المطر من تلقاء نفسه ويرويه زمنا
طويلا ، وأن نحفر للغرض نفسه ما يشبه الآبار تحت أشجار التين
والليمون على شكل أقراع : تلك كانت مشاغلنا في الصباح حتى
تسقط أشعة الشمس عمودية على السقف ، وعلى الحديقة الغناء وترغمنا
على أن نلوذ بفي الخنازل . كان الشفوف وانعكاس أوراق السكروم بهيخان
ظلالها المفردة بلون صارخ بموه بالذهب . .

الفصل الثاني

- ١ -

كانت جرازيلّا تعود إلى الدار لتغزل بجوار جدتها أو لتعد وجبة منتصف النهار . أما الصياد الشيخ ويبيو فكانا ينفقان النهار بطوله على شاطئ البحر في تنظيم القارب الجديد ، في تزويده بالاستكمالات التي يوحىها لهما شغفهما بملكهما الجديد ، وفي تجربة الشباك في ظل الصخور . وكانا يجلبان لنا دائما ، لوجبة الظهر ، بعض سرطان البحر ونعبانة ذات القشور التي يفوق لمعانها لمعان الرصاص المصهور . وكانت الأم تقلبها في زيت الزيتون . وكانت الأسرة تحتفظ بهذا الزيت ، وفقا لعادة البلد ، في بر صغيرة مخفورة في الصخرة القريبة من البيت ، مغلقة بحجر صخيم مثبت فيه حلقة من حديد . وكانت بعض خيارات مقلية أيضا ومقطعة إلى شرائح في المقلاة ، وبعض المحار الطازج شبيهة « الميديا » والذي يدعى فأكهة البحر . كانت تألف منها هذه الوجبة الشهية ، الوجبة الرئيسية ، وأدسم وجبات اليوم . وكان بعض العنب الموسكات ، ذى العناقيد الصفراء المستطيلة ، الذي قطفته لنا جرازيلّا في الصباح ، وحفظته فوق أغصانه وغطته بأوراقه ، وقدمته لنا على

سلال مسطحة من الخيزران المجدول — كان يؤلف الحلوى . وكان
عود أو عودان من الكرفس الأخضر النضج المغموس في الفلفل ،
والذى تعطر رائحته أنسونه الشفاء وتنشئ القلب — يقوم مقام الشراب
والقهوة ، طبقا لعادة نوتية نابولي وغلاحيها . وبعد الغداء كنصف
أمضى وصديق نشد ظلة دائية على قمة الصخرة مطلة على البحر وشاطئ
بايا ، لنتفق فيها وقت الغيلولة في التأمل والتخيل والمطالعة حتى
ساعة الأصيل .

- ٢ -

لم نتمكن قد أنقذنا من الأمواج سوى ثلاثة مجلدات فريدة ، ذلك
أنها لم تكن في حقيبتنا عندما رميناها في البحر : كان أحدها كتبيا
إيطاليا المؤلف أوجو فوسكولو عنوانه « رسائل جاكو بوأورتيس »
هو أشبه شيء بفرير نصفه سياسى ونصفه روائى ، تحتلط فيه عاطفة
شاب إيطالى نحو بلاده بعاطفته نحو « فينيسية » حسناء . إن الحماس
المزدوج الذى تغذيه نار العاشق والمواطن المزدوجة هذه ، تذكى فى
روح أورتيس حمى لا يتحمل نوبتها الشديدة رجل مرهف الحس
مستقام فتفضى به إلى الانتحار . كان هذا الكتاب . وهو نسخة
حرفية لكن منمقة وواضحة من « فرير » الذى ألفه جوته — كان
يدور فى يد جميع الشبان الذين يراودهم . مثلنا ، هذا الحلم المزدوج
لأولئك الخليعة بأن يحملوا بشيء عظيم : الحب والحرية .

عبثا كان بوليس بونابرت ومورا يصادر الكتاب ويضطهد المؤلف . فقد كان قلب الوطنيين الإيطاليين كفاة ، وأحرار أوروبا قاطبة كنفا للؤلؤ . وكان صدر جميع الشباب مثلنا محرابا للكتاب إذ كنا ندسه في صدورنا لننقسم مبادئه ، وكان أحد السكتا بين الآخرين اللذين أنقذناهما « بول وفرجينى » ابن ناردان دى سان بيير . دستور الحب البرىء هذا وكان الآخر كتابا لتاسيت . صفحات ملطخة بالفسق وبالعار والدم . لكن فيها تمسك الفضيلة الرواقية منقش التاريخ وعدم تأثره الظاهرى لتوحى إلى أوشك الذين يفهمونها كراهية الطغيان . وقوة الخوايم العظيمة . والنمطش للبيئات السكريمة .

كانت هذه السكتب الثلاثة بمحض الصدفة تتجاوب مع المشاعر الثلاثة التى كانت منذئذ ، كأنما بالحدس ، تختلج فى نفوسنا الشابة : الحب ، الحماص لتحرر إيطاليا وفرنسا ، وأخيراً الشغف السياسى وسير عظام الأمور التى رسم تاسيت لنا صورتها ، ومن أجلها غمض أرواحنا مبهكراً فى دم فرشاته وفى نار الفضيلة القديمة . كنا نقرأ بصوت طال ، كل بدوره ، معجبين تارة ، باكين تارة ، وسالمين تارة أخرى . وكنا نقطع هذه المطالعات بفترات صمت طويلة ، وصيحات تعجب متبادلة ، كانت لدينا بمثابة تفسير عفو الخاطر لمشاعرنا ، وكانت تذهب مع أحلامنا أدراج الرياح .

كنا نضع أنفسنا بالفسكر فى بعض المواقف التى يسردها لنا الشاعر أو المؤلف ، خيالية كانت أو حقيقية . كنا نتخذ لأنفسنا مثلاً أعلى

للعاشق أو المواطن . للحياة السرية أو للحياة العلنية . للخطة أو للفضيلة .
 كان يستهويننا أن نمزج تلك الفاروف العظيمة . تلك المصادقات العجيبة
 في أزمان الثورة ، التي تكشف فيها العميقة للجماهير أكثر الناس تحول
 ذكر وتستند عليهم — كأنما بالاسم — لمسك الخطة الظالم وإنقاذ الأمم ،
 ثم يروحون ضحية لتغيب الشهبوب وبعدها ، فيمدون شفتها ، هلى
 مرأى من الزمن الذي يقلب لهم ظهر الجبن . ومن الخلف الذي
 يثار لهم .

ما من دور ، مهما بلغ من البطولة إلا وجد أنفسنا في مستوى
 المواقف . كنا نعد أنفسنا لكل أمر ، وإن لم يحقق الحظ يوما هذه
 المحن الكبرى التي خضناها بالفسكر ، فقد كنا ننتقم منه سلفا بأزدرائه .
 كانت جهوانحنا تنطوى على عزاء النفوس القوية هذا : إن ظلت حياتنا
 تافهة . عادية ، خاملة . فذلك لأن الحظ قصرت همته عنا . فلنسنا نحن
 الذين قصرت همتنا عن الحظ !

— ٥ —

عندما كانت الشمس تغفل للإياب كنا نقوم بجولات طويلة خلال
 الجزيرة . كنا نفترقها في كل اتجاه . وكنا نذهب إلى المدينة لابقيا
 الخبز والخضر التي تعوز حديقة أندريا . وكنا أحيانا نجتلب بعض
 الطباقي . أفيون النوقى هذا ، الذي يحيى همته في البحر . ويفرج عنه
 في البر . وكنا نؤوب عند انسداد الليل وقد امتلأت جيوبنا وأيدينا
 بتلك الهدايا المنواعة . وكانت الأسرة تجتمع في المساء فوق السطح
 الذي يسمى في نابولي « استريكو » في انتظار حلول ساعة النوم . وما

من شيء في ليالى هذا الإقليم الجميلة أجمع من مشهد السطح هذا يسبح في ضوء القمر .

في الريف . يماثل المنزل الخفيض المربع قاعدة تمثال عتيقة تحمل زمراً من الأحياء وتماثيل تختلج بالأنفاس . إذ يصعد أهل المنزل جميعاً إلى السطح حيث يتحركون أو يجلسون في شتى الأوضاع . ويعكس ضوء القمر أو بصيص المصباح هذه الصور ويرسمها في القبة الزرقاء . هنالك يرى الرائي الأم العجوز تقوم بالغزل ، والآب يدخن غليوناً من نخار ذا أنبوبة من يراع . والفتيان يعتمدون على الحافة ويتنمون في أنغام مستطيلة بتلك الألحان البحرية والريفية التي تنطوي لإيقاعاتها الممتدة والمؤثرة على مسحة من أنين الخشب يعذبه الموج أو صرير الجدد « الصرصار » تلفحه الشمس . وأخيراً يرى الفتيات بثيابهن القصيرة وأقدامهن الخافية ، وستراتهن الخضراء المزركشة بالذهب أو بالخر . وشعورهن الفاحمة المرسلّة السابحة فوق أكتافهن . والمعصوبة بمنديل معقود على العنق في عقد ضخمة لحماية شعرهن من التراب .

وكثيراً ما يرقص هنالك . منفردات أو مع شقيقاتهن . فتمسك إحداهن قيثارة . وترفع الأخرى فوق رأسها دفاً تهبط به صنوج (جلاجل) من نحاس . ولأن إحدى هاتين الآتين شاكية خفيفة الوطأ والأخرى رتيبة صماء الوقع فهما تنسجان انسجاماً رائعاً لترجعا بلا افتتان اللحنين اللذين يتناوبان قلب الإنسان : الحزن والفرح . هاتان لآلتان يسمعهما السامع في ليالى الصيف فوق جميع أسطح الجزر تقريباً أو ريف نابولي . بل فوق القوارب . هذا النغم الهوائي الذي يتعقب الأذن من بقعة إلى بقعة . ابتداء من البحر حتى الجبل هو أشبه شيء

بطنين حشرة أخرى تولدها الحرارة وتدفعها إلى الطنين تحت هذه السماء
الجميلة. هذه الحشرة النعسة هي الإنسان الإنسان الذي يتغنى بضعة أيام أمام
الله بأهازيج شبابه وغرامه ثم يصمت إلى الأبد . ما استطعت أن أسمع
هذه الأنغام الشائنة في الهواء من فوق الأسطح إلا توقفت وإلا شعرت
بضيق يهصر قلبي حتى ليكاد ينهجر من الفرح المسكونون الدافق أو من
الحزن الغلاب القاهر .

- ٦ -

كذلك أيضا كانت الأوضاع . والأنغام . والأصوات على شرفة
سطح أندريا . فكانت جراز بلا تعزف على القيثارة . أما يفيينو فكان
يصاحب شقيقته بالنقر بأصابعه على الدف الصغير الذي كان يستعمل
فيما مضى لتنويمه في المهد . ومع أن الأدوات كانت مرحة والأوضاع
كانت أوضاع غبطة فإن الألحان كانت حزينة ، والأنغام البطيئة القليلة
تنفذ إلى شغاف المهجة الوسنانة . كذلك شأن الموسيقى حينما لا تكن
تسلية فارغة للأذن . بل نشيجاً متسقاً للعواطف التي تنبثق من النفس
عن طريق الصوت . فكل ألحانها زفرات . وكل أنغامها تسيل بالعبرات
مع الإيقاع . فبحال أن تمس قلب الإنسان مساقواً دون أن يذرف
الدمع ، فإلى هذا الحد توجد الطبيعة مترعة في باطنها بالحزن والشجن .
وإلى هذا الحد تجدها إن رجها أحد تطفح الثالة على شفاها والغشاوة
على أبصارنا !

حتى عندما كانت الفتاة ، نزولا على إلحاحنا ، تنفض في خفر
الترقص التراتلا على نغمة الدف الذي يدهه أخوها . دائرة حول نفسها
مدفوعة بفعل الحركات الدائرية لتلك الرقصة الوطنية . رافعة ساعديها
برشاقة ، مقلدة بأصابعها قرعة الصنوج . ومسرعة ديبب أقدامها
الخافية كأنه قطرات الغيث تساقط على الشرفة . نعم حتى عندئذ كان يخيم
في الجو . وفي الأوضاع . بل وفي صورة هذه النشوة المعتملة ، مسحة
من الجلد ومن الحزن . كأن كل غبطة ليست إلا جنونا عابراً . وكان
اغتنام بارقة من السعادة يقتضى الشباب والجمال نفسهما أن يترعبا بالنشوة
لدرجة الدوار ، وأن يشملا بالحركة لدرجة الخيال !

وكثيرا ما كننا نتبادل أطراف الحديث الجاد مع مضيفينا . فنجعلهم
يقصون لنا حياتهم ، وتقاليدهم . أو ذكرياتهم العائلية . وكل أسرة
لأنما هي قصة بل قصيدة لسكل من يعرف كيف يتصفحها . وكان لهذه
الأسرة أيضا عراققتها . وثروتها ، وهبتها في الماضي البعيد .

كان جد أندريا تاجرا يونانيا من جزيرة إيجين . عمه الباشا
حاكم أثينا إلى اضطهاده ، فرحل ذات ليلة مع زوجته ، وبناته
وأبنائه ، وثروته على سفينة من السفن التي يملكها للتجارة ، التجأ إلى

بروسيدا حيث كان له وكلاء ، وحيث كان السكان يونانيين مثله .
وهناك اشترى أملاكاً واسعة درست واندثرت معالمها ما عدا المزرعة
الصغيرة التي كنا فيها ، واسم أجداده محفور على بعض المقابر في مدافن
المدينة . وتوفيت البنات راهبات في دير الجزيرة . وفقد الأبناء الثروة
في الأنواء التي ابتلعت سفنهم . وآلت الأسرة إلى الاضمحلال . بل
إنها بدلت لقبها اليوناني الجميل بلقب مخمور لصياد من بروسيدا . كان
أندريا يقول لنا : عندما يذل بيت بعد عز ينتهي الأمر إلى أن يكأس
آخر حجير فيه ، فمن كل ما كان يقتنيه جدي لم يبق سوى مجذافى ،
والقارب الذى رددتماه إلى ، وهذا الكوخ الذى يهجز من القيام بأود
أصحابه ، ونعمة الله .

- ٩ -

وكانت الأم والفتاة تسألانا أن نصارحهما بدورنا من نكون ،
وأي موطئنا ، وماذا يعمل أهلنا ، وهل لنا أب ، وأم ، وأخوات ،
ولخوة وبيت ، وأشجار تين وكروم ، ولماذا تركنا وراءنا ذلك كله
ونحن في مثل هذا الشباب لناقى هنا لنجذف ونطالع ، ونكتب ، ونحلم
في الشمس ، ونبيت على البر في خليج نابولي ؟ عبثاً كنا نتسكلم ، فإننا
لم نفلح قط في إقناعهم بأننا جئنا كما نتأمل السماء والبحر ، كما نبخر
روحنا في الشمس ، كما نشعر بشبابنا يغلي في دخیلنا . وكما نجمع أحاسيس
ومشاعر ، وأفكاراً لعلنا أن ننظمها فيما بعد في أشعار كالتى يرونها
منظومة في كتبنا . أو كالتى يرددها شعراء نابولي المرتجلين للتوتية في
مساء الأحد على الرصيف أو في المارجيلينا .

وكانت جرازىلا تقول لنا ، وقد انفجرت فى الضحك : « أترمون
إلى السخرية منى ؟ أأنتم شعراء ؟ لكن شعركم ليس أشعث . وعيونكم
لا تنفث شرراً مثل أولئك الذين يدعون كذلك على أرضة البحرية
أنتم شعراء ؟ ولا تعرفون أن تمزقوا نعمة واحدة على القيثارة ؟ بماذا
إنتم تصاحبون الأغاني التى تنشدونها ؟ ثم تمز رأسها هذا وتزم شفها
شزراً ، وقد عيل صبرها لظننا أننا لا نريد أن نصارحها بالحقيقة . »

- ١٠ -

وفى بعض الأحيان كان يعمل بنفسها شك آثم فيلقى فى نظرتها
شيئاً من الريبة وظلا من الحشية . وكنا نسمعها تمس لجدتها بصوت
خفيض دكلا هذا محال ، إنهما ليسا لاجئين مبعدين من بلادهما من
جرائم فعل كربه بغيبض ، فإنهما يبلغان من الشباب والطيبة بحيث لا يعرفان
الشر . وعندئذ كنا نتسلى بأن نسردها قصة بعض الجرائم المروعة
التي نمرها إلى أنفسنا . وكان التناقض بين جبيننا المشرقين . وعيوننا
الصافية ، وشفاهنا الباسمة . وقلوبنا المكشوفين . وبين الجرائم الوهمية
التي زعمنا اقترافها — كان يجعلها تنفجر ضاحكة شائها شائها شقيةها
ويبدد بسرعة كل مجال للتوجس وعدم الثقة .

- ١١ -

وكثيراً ما كانت جرازىلا تسألنا عما نقرأه طول النهار فى كتبنا
، وكانت تحسبها كتب صلوات . لأنها لم تكن تقرأ كتباً إلا فى السكينة

في يد المؤمنين الذين يعرفون القراءة ويتابعون كلام الرهبان المقدس . كانت تظننا في غاية التقوى ، مادامنا تنفق أياما كاملة في التمتة بكلمات غامضة . بيد أنها كانت تتعجب لأننا لم نكن قساوسة أو كهنة في مدرسة إكليريكية بنا بولي أو دير من الأديرة بالجزر . ولكي نزيل خطأها حاولنا مرتين أو ثلاث مرات أن نقرأ فقرات من فوسكولو وبعض مقتطفات جميلة من ناسيت ، مترجمين إياها إلى لغة البلد الدارجة .

كننا نحسب أن هذه الفقرات الوطنية الإيطالية المنفي ، وهذه المآبى الكبرى لروما الإمبراطورية سيكون لها وقع قوى في نفس مستمعينا السذج ، لأن الشعب مغطور على الوطنية في غريزته ، والبطولة في عاطفته ، والفاجمة في فظارته . فما يعاقب بذاكرته هو على الأخس الانهيارات الكبيرة والميتات الجليلة . لكن سرعان ما لاحظنا أن هذه الأقوال الرنانة وهذه المشاهد التي سيطرت على نفسياتنا لم يكن لها على هذه النفوس البسيطة أدنى أثر . إن عاطفة الحرية السياسية ، هذا المطمح لعلية القوم من أولى الفراغ ، لا ينزل إلى هذا الحد بين العامة .

لم يكن الصيادون الفقراء أولئك يدركون لمساذا قط أورتيس وانتحر ، مادام كان في وسعه أن يستمتع بلذات الحياة الحقيقية كافة : التزه دون مشغلة ، رؤية الشمس . حب الطبيعة . والدعاء لله على ضفاف لا برتنا الخضراء الحصبة ، كانوا يقولون : أي مدعاة لأن يتألم المرء هكذا ويتعذب في سبيل أفكار لا تنفذ حتى شغاف القلب : ماذا يهمه إن كان النسويون أم الفرنسيون هم الذين يتكلمون ميلانو ؟ إنه لمنجون أن يتكبد مثل هذا الحزن والسكد من أجل مثل هذه الأمور . . وما عادوا يسمعون .

أما تاسيت فسكانوا أقل فهما له . فالإمبراطورية أو الجمهورية .
وأولئك الناس الذين يتقاتلون ، بعضهم في سبيل السيطرة والبعض
الآخر لكيلا يعيش في إساءة العبودية . وهذه الجرائم في سبيل العرش
وهذه الفضائل في سبيل المجد . وهذه الميئات في سبيل الخلف ، كل ذلك لم
يكن يؤثر فيهم مثقال ذرة . كان عندهم أشبه شيء بالرعء على مبيدة
منهم فوق الجبل ، فهم يدعونه يقع دون أن ينشغلوا به لأنه لا يقع إلا
على شوامخ الذرى ، فلا يهز شراع الصياد ولا دار الفلاح .

إن تاسيت ليس مشهوراً إلا لدى رجال السياسة والفلاسفة . فهو
أفلاطون التاريخ . وإن حساسيته لأرفع من أن يسيغها العامة .
ولكى يدركه الإنسان ينبغي أن يكون قد عاش في عجييج الميدان العام
أو في دسائس القصور الغامضة . احذف الحرية . والطموح . والمجد
من هذه المشاهد ، فماذا يبقى منها ؟ أولئك هم الممثلون الثلاثة
العظام في مآسيه .

وعلى ذلك حاولنا أن نقرأ لهم . ذات مساء . بول وفرجينى .
كنت أنا الذى أترجم هذا الكتاب وأنا أقرؤه . لأنى كنت قد
اعتدت قراءة حتى حفظته ، إن جاز القول : عن ظهر قلب . ولما كنت
قد ألقت اللغة الإيطالية نظراً لطول إقامتى فى إيطاليا . فإن التعابير
كانت تسعفى دون ما كلفة بل كانت تجري على شفتى بجري لغة الأم .
وإن هو إلا أن بدأت هذه القراءة حتى تغيرت وجوه المستمعين وكساها

تعبير من الانتباه والخشوع ، وهي دلالة مؤكدة على تأثر الأفتدة .
كما قد وقعنا على اللحن الذي يحتاج بالإجماع في نفس كل الناس ، في
كل الأزمان ، وفي كل الطبقات . اللحن المحسوس . اللحن الشامل .
اللحن الذي يتضمن في نغمة واحدة حقيقة الفن السرمدية : الله ، الطبيعة ،
والحب .

- ١٣ -

ما إن قرأت بضع صفحات حتى تغير وضع المجوزين . والفاتة ،
والأطفال . نسي الصياد ، وقد انسكأ بمرفقه على ركبته وأرهف أذنه
يحمي ، نسي أن ينشق دخان غليونه . واعتمدت الجدة المجوز ذقنها بيديها
وقد جلست قبالي ، في وضع فقيرات النساء اللواتي ينصتن لسكلام الله
جاسات القرفصاء على بلاط المعابد . وهبط يبيو من فوق سور الشرفة
حيث كان يقعد . ووضع قيثارته في سكونه على الأرض . وجعل راحة
يده على مقبض القيثارة خشية أن تدفع الرياح الأونار إلى الرنين . أما
سمرزبلا . التي كانت تظل عادة مبتعدة قليلا . فقد أنشأت تقترب مني
على نحو غير محسوس كأنها مفتونة بقوة جاذبية خفية في ثنايا السكتاب .

كانت مستندة على سور الشرفة الذي كنت متمددا تحته ، فطفقت
ترداد دنوا مني ، متكئة على يدها اليسرى التي تدلت على الأرض في
وضع المصارع المجروح . وكانها تنظر بعينها النجلارين المفتوحين
حينما إلى السكتاب . وحينما إلى شفتي اللتين تسيل منهما القصة ، وحينما
إلى ما بين شفتي والسكتاب من فراع ، كأنها تبحث بنظرها عن الروح

الحفى الذى يترجمه لى . وكنت أسمع أنفاسها المضطربة تنقطع أو تلمت . حسب اختلاجات المأساة . شأنها شأن أنفاس مبهورة لا يرى* يصعد جبلا فيستريح ليتنفس من آن لأن . وقيل أن أباغ منتصف القصة كانت الفتاة المسكينة قد نسيت تحفظها — اللفظ بمض الشيء — حياى . كنت أحس حرارة أنفاسها تلمح يدى . وكان شعرها يتموج فوق جبيني . وانحدرت من وجنتها بضع عبرات سخينة قبلت صفحات الكتاب على مقربة من أصابعى .

- ١٤ -

فيما عدا صوتى البطيء الرتيب ، الذى كان يترجم لأسرة الصيادين هذه شعر القلب هذا ترجمة حرفية ، لم نكن نسمع أى صوت سوى اللطمات الصماء البعيدة التى يكيلها البحر للشاطئ* هنالك تحت أقدامنا . وكان هذا الصوت نفسه متسقاً مع المطالعة . كان بمثابة خاتمة القصة المتوقعة ، التى تدمدم فى الجوسلفا فى بدايتها وفى سياقها وكما تسكشف ، القصة بدت تطلب مستمعينا البسطاء . وإذا صادف أن ترددت فى العثور على التعبير الصحيح لترجمة كلمة فرنسية كانت جرازىلا تقرب المصباح — الذى صمدت منذ بعض الوقت إلى حمايته من الريح بمنزرها — كانت تقربه من الصفحات حتى كادت فى غمرة قلقها أن تحرق الكتاب ، وكأنها قد حسبت أن ضوء اللهب سيجعل المعانى الذهنية تنبثق أمام عيني انبثاقاً ، والألفاظ تتدفق على شفقي اندفاعاً . وكنت أدفع المصباح بيدي مبتسماً دون أن أحول نظرى عن الصفحة ، فأشهر بأصابعى ساخنة بعبراتها أيما سخونة .

عندما بلغت اللحظة التي دعت فيها فرجينى عمتها إلى فرنسا، فأحسست فرجينى ، إن جاز القول ، بكيانها ينشطر إلى نصفين : وجهدت أن تعزى بول فى ظل أشجار الخرز . محدثة لياها عن عودتها ، ومشيرة له إلى البحر الذى سوف يحملها ، عمدت إلى طى الكتاب . وأرجأت القراءة إلى اليوم التالى .

كان هذا بمثابة صدمة قلبية لأولئك القوم البؤساء . فنجشت جرازىلا أمامى ، ثم أمام صديقى ، مضارعة لينا أن أتم القصة ، لكن دون جدوى . فقد كنا نروم أن نطيل الاهتمام بالقياس إليها وقتنة التجربة بالقياس لينا . وعندئذ عمدت إلى انتزاع الكتاب من يسدى . وفتحتة . كأنها تستطيع بقوة الإرادة أن تدرك معانى حروفه . وأنشأت تحدّثه وتقيله . ثم أعادته فوق ركبتي باحترام ضامة يديها وناظرة إلى فى توسل وضراعة :

وكان يحياها الوضاء البسام فى السكينة ، وإن شأبه مسحة من الجله والصرامة ، قد اتخذت بغتة فى غمرة العاطفة الجياشة والحنو المؤثر الرقيق لهذه القصة ، مسحة من حيوية المأساة ، وبليتها وتأثيرها الفاجع . كنت تخال أن ثورة مباغتة قد حولت هذا المرمر البجل إلى لحم ودموع لقد أحسست الفتاة أن روحها الخاملة حتى الآن تتسكف لها فى روح فرجينى . وبدأت كأنها نضجت ست سنوات فى نصف الساعة هذا . إن صبيغات العاطفة العاصفة لونت جبينها ومقلتها اللازوردية ووجنتيها

يلون المرمر . كما لو أن مياهها هادئة آمنة حلت فيها على حين غرة الشمس والرياح والظلمة تعترك لأول مرة . لم يكن في مقدورنا أن نسأم تأملها في هذا الوضع ، هي التي لم تكن توحى لنا حتى الآن إلا المرح والمزاح ، بدأت توحى لنا التوقير والاحترام . لكن عيشاً تضرعت لإيماننا أن نكمل ، فإننا لم نشأ أن نستنفد سلطاننا في دفعة واحدة ، وكانت تلذذنا بإسالة دموعها الجيلة أبلغ من أن تجفف منبعها في يوم واحد ، فانسحبت متجهمة ثم أطفأت المصباح وهي كعظيم .

- ١٦ -

وفي الصباح التالي عندما رأيتها ثانية تحت الخنازل ، وأردت أن أبادلها الحديث أشاحت عني شأنها شأن من يخفي دموعه ورفضت أن تجيب . وكان يرى الرائي من عينيها اللتين تحفهما حالة خفيفة سوداء من شحوب وجهتها السكبي ومن انخفاض زاوية فمها انخفاضا خفيفا . فأتانا - - كان يرى أنها لم يغمض لها جفن وأن قلبها كان ملتاعا بأشجان سهرة الأمس الخيالية . فياله من سلطان فذ خارق الكسباب يؤثر في فؤاد فتاة أمية وأسرة جاملة بكل قوة حقيقة واقعية ، وتبلغ مطالعته مبلغ الحدث في حياة القلب !

ذلك أنه مثلما كنت أترجم الشعر كان الشعر يترجم الطبيعة وأن تلك الحوادث البالغة البساطة : مهد هذين الطفلين أمام أمين بائسين ، وغرامياتهما البريئة وفرقتهما القاسية ، وهذه العودة التي خافها الردى ، وهذا الفرق وذائكما القبران اللذان لا يضافان إلا قلبا

واحداً فى فى أشجار الموز ، كل هذه أمور يحسها السكافة ويفهمونها
ابتداء من القصر المنيف إلى كوخ الصياد . إن الشعراء يبحثون عن
العبقرية فى أبعد الأبعاد فى حين أنها تسكن فى الفؤاد وإن بضعة أنغام
بسيطة تعزف اتفاقاً وفى خشوع على هذه الآلة التى نسقها الله تسكفى
لكى تبكى عصرأ برمتيه ، ولكى تصبح شائعة شيوع الحب جذابة
جاذبية العاطفة . إن الجليل يضجر والجميل يخدع فما فى الفن معصوم
إلا المؤثر . فمن يعرف كيف يثير الحنول يخفى عليه أمر . وإن دمة
واحدة فيها من العبقرية مالا يوجد فى المتاحف والمكتاب كفاة
فى الكون قاطبة .

مثل الإنسان كمثل شجرة نهزها لنسقط ثمارها : فلا يمكنك أن
تهز الإنسان دون أن تسقط منه الدموع .

- ١٧ -

كان المنزل طول النهار حزيناً كأن كارثة أليمة قد ألمت
بالأسرة المتواضعة . فجعلنا نجتمع لتناول الوجبات دون أن نتبادل
أطراف الحديث ، ونفترق . وثلثى دون ابتسام . وكان يرى الراقى
أن جرازيل لا تؤدى مشاغلها فى الحديقة أوفى الشرفة بهمة قعساء . وكثيراً
ما كانت تتطلع لترى هل أوت الشمس إلى خدرها . وكان جلياً أنها فى
ذلك اليوم لم تسكن تنتظر غير المساء .

وعندما أتى المساء . واتخذنا أما كسنا المعتادة فوق السطوح ، فتحت
الكتاب وأتممت القراءة وسط النشيج والانتحاب . الأب ، الأم ،

الأطفال ، صديقي ، وأنا ذاتي . كلنا اشتركنا في هذا الانفعال العام . كانت نبرة صوتي الحزينة الخطيرة تتمشى ، دون أن أدري ، مع حزن المغامرات وخطورة الألفاظ . وكانت الألفاظ تبدو في نهاية القصة وكأنها تأتي من بعيد وتسقط في النفس من حلق بصوت أجش . صوت صدر أجوف لم يعد يخفق فيه القلب ، ولم يعد يعنيه من أمور الأرض إلا ما يتصل بالحزن ، والدين ، والذكرى .

- ١٨ -

كان من المحال أن نفوه بهراء بعد هذه القصة . فليفت جرازيللا ثابتة دون حراك في الوضع الذي كانت فيه وهي تستمع وكأنها ما زالت مستمعة . وران السكون ، تصفيق الأحاسيس الدائمة الحقيقية هذا ، فلم يقطعه أحد . فقد احترم كل امرئ لدى الآخرين الألفاظ التي أحسها في صميمه . ونفذ زيت القنديل فجعل ينطفئ رويداً رويداً دون أن يمد أحد يده ليؤثره . ونهضت الأسرة وانسحبت خلصة . ومكثنا وحدنا صديقي وأنا . متحيزين في سطوة الحقيقة ، والبساطة ، والعاطفة على كل الناس ، في كل الأزمان ، وفي كل البلدان .

وربما كان ثمة انفعال آخر يعتدل أيضاً في أعماق قلوبنا . فإن صورة جرازيللا الساحرة وقد تغيرت بفعل الدموع ، وعرفت الألم بفعل الحب ، كانت تسبح في أحلامنا مع طيف فرجينى العلوية . هذان الاسمان . هاتان الطفلتان ، وقد اختلطتا في رؤى غير مستقرة ، سيملتا نفتنان أو تحزنان نومنا المضطرب حتى الصباح . ولم تكن

مندوحة من أن نعيد قراءة القصة نفسها للفتاة مرتين في مساء ذلك اليوم واليومين التاليين له . ولو قد قرأنا لها مائة مرة على التوالي لما سممت أن تطلب منا قراءتها ثانية . لأنها الخاصة من خواص خيال الجنوب الحالم العميق ألا ينشد التنوع في الشعر وفي الموسيقى فليس الشعر والموسيقا — إن أمكن التعبير — إلا نسيجاً واحداً يعطر فيه كل امرئ مشاعره الخاصة . ففيهما يتغذى الناس على مر العصور دون أن يشبعوا من نفس القصة ومن نفس اللحن شأنهم شأن العامة سواء بسواء . ماذا في الطبيعة نفسها؟ تلك الموسيقى وذلك الشعر السامى . ماذا فيها غير بضعة ألفاظ وبضعة أنغام . هى على الدوام متمحزون بها الناس أو تستخف منهم الأبواب منذ أول نفس يتردد فيهم إلى آخر الأنفاس ؟

- ١٩ -

عند شروق الشمس . في اليوم التاسع . هبت الرياح المعتدلة آخر الأمر . وإن هى إلا ساعات قلائل حتى أصبح البحر بحر صيف . حتى جبال شاطئ نابولي . شأنها شأن المياه والسماء بدت سابحة في ذوب أمن صفاء وأشد زرقة منه في شهور وغرة القيظ . كآلو أن اليم والقبعة الزرقاء والجبال الشام قد شعرت بتلك الرعدة الأولى للشتاء . التي تبلور الهواء وتجعله يأخذ مثل مياه الثلوج المتجمدة . وبدأت أوراق الكرم الضاربة إلى الصفرة وأوراق التين المائلة إلى السمرة تنساق وتنثاثر في الغناء . وكان العنب قد قطف . والتين المجفف في الشمس فوق

السطح قد عي في سلال غليظة من الأعشاب البحرية جداتها النساء .
وكمان القارب يتلمف لتجربة البحر ، والصيد الشيخ يتعجل لإعادة أسرته
إلى المارجليتنا . فعمدنا إلى تنظيف المنزل والسقف . وغطينا النبع
بمحجر ضخمة لكيلا تلوث الأوراق الجافة وأمواء الشتاء الخوض .
وأفرغنا البئر الصغيرة المحفورة في الصخر من الزيت ووضعناه في جرار
أنزلها الأطفال إلى البحر حاملين إياها على عصي ممدودة بين أذانها .
ولفنا الحشية وأغطية السرير في حزمة مشدودة بالحبال . وأشعلنا
المصباح لآخر مرة تحت الصورة المتروكة فوق المدفأة . وأدينا آخر
صلاة أمام العذراء كيما نوصيها بالمنزل . وبشجرة التين . والكرمة
التي كانت الأسيرة تغادرها هكذا بضعة أشهر ثم أوصدنا الباب .
وخأنا المفتاح داخل صدع في الصخر مغطى بالبلاب . لكي يعرف
الصيد إن عاد خلال الشتاء أين يجده ويستطيع أن يزور بيته . ثم
هبطنا إلى البحر . معاوين الأسيرة المسقطة في حمل الزيت والخبز والفواكه
وشحنها في القارب .

الفصل الثالث

- ١ -

كانت عودتنا إلى نابولي في محاذة خليج بايا وسفوح البوزيليبه المتعرجة ، بمثابة عيد حقيقى للفتاة وللأطفال ، ولنا ، وبمناوبة نصير لاندريا . ودلفنا إلى المارجيلينا فى الليل الحالك ونحن نغنى . ولم يمل أصدقاء الصياد القدماء وجيرانه الإعجاب بقاربه الجديد . وعاونوه على إفريغ شخفته وجره إلى البر . ولما كنا قد نهيناه عن أن يقول لمن كان يدين به ، فإنهم لم يولونا إلا قليل احتفال .

وبعد أن جبررنا القارب على الرمال . وحملنا سلال التين ووضعناها فوق قبو أندريا عن كشب من مدخل الغرف الثلاث الواطئة التى تسكنها الأم العجوز . والأولاد الصغار ، وجرازيلا ، انسحبنا دون أن يرانا أحد ، واخترقنا ، وفى القاب غصه ، عجيج شوارع نابولي المسكتظة ، وعدنا أدرأجنا إلى مسكننا .

- ٢ -

وبعد بضعة أيام من الاستجمام فى نابولي . عولنا على معاودة نفس

الحياة مع الصياد كلما سمحت لنا حالة البحر . وكان من شأن
تعودنا منذ ثلاثة أشهر على بساطة ثيابنا وعرى القارب أن بدت لنا
ثياب المدن وسرير غرفتنا وأثاثها ترقا ممضا يورث الملل . وكان براودنا
الآمل ألا نستعملها إلا أياما قلائل . بيد أننا عندما ذهبنا في الصباح
التالي لنبحث في دار البريد عن رسائلنا المتأخرة ، وجد صديقي خطابا
من أمه ، كانت تستدعي ابنها فوراً إلى فرنسا لحضور قران شقيقته .
وكان على خطيبها أن يسبقه إلى روما . وعليقا للتواخي كان لابد أنه
قد بلغها . ولم يكن ثمة مجال للتسويق : فلا مناص من الرحيل .

وكان ينبغي أن أرافقه . ولكنني لست أدري أى فئنة في العزلة
والمغامرة قد استميتني . لعل حياة البحار ، وكوخ الصياد ، وصورة
جرازيل كان لها بعض الشأن في ذلك . لكن على نحو غامض . إلا أن
'فشوة الحرية . وزهوى لاعتدادي على نفسي وحدي على بعد ثلاثمائة
مرحلة من بلدي . والشغف بالغموض والمجهول . والأمانى الأنيوية
لأحلام الشباب . كان لها في ذلك شأن أكبر .

افترقنا في تحنان رجال . ووعدني أن يعود فيلحقني فورما يؤدي
واجباته كأمين وأخ . وأقرضني خمسين ديناراً ليسد ما خلفته هذه الأشهر
ثلاثة من فراخ في كيس نقودي ، ثم رحل .

— ٣ —

هذا الرحيل وغياب هذا الصديق الذي كان شأنه معي شأن أخ أكبر
مع أخ لطفل تقريباً ، تركني في عزلة كانت كل ساعة تزيدها عمقاً

وكنيت أحسن أنى أغوص فيها كأنى أغوص فى هوة . فكل أفكارى ، كل هواطنى ، كل ألفاظى التى كانت فيما مضى تدبخر إذ أتبادها معه ، رسبت فى قاع نفسى ، حيث فسدت ، واكتأبت ، وجثمت على قلبى كوقر لا قبل لى على أن أزيحه . هذه الجلبة التى لا شىء فيها يعنى ، هذه الجواهر التى لا يعرف أحد منها اسمى ، هذه الغرفة التى لا نظرة فيها نهار وبى ، حياة الفندق هذه حيث يحتك المرء بلا انقطاع بقوم مجهولين ، وحيث يختلص إلى مائدة صماء بجوار أناس جدد دائماً وغير غياليين أبداً ، هذه الكتب التى قرأتها مائة مرة ، والتى تقول لك حرورها الثابتة دائماً نفس الكلمات فى نفس الجلبة وفى نفس المكان كل ذلك الذى بدا لى عذباً أيما عذوبة فى روما وفى نابولى ، قبل رحلاتنا وحياتنا العاطلة المتجولة أثناء الصيف . جعل يبدو لى الآن بمثابة موت بطل . . . كنت أغرق قلبى كذا .

جعلت بضعة أيام أجز هذا الحزن من شارع إلى شارع . ومن عسرح إلى مسرح . ومن مطالعة إلى مطالعة . دون أن أتمكن من زعزعة شئ انتهى الأمر بأن قهرنى ، ومرضت بما يسمى الحنين إلى الوطن . كان رأسى مثقلا . وساقى لا تقويان على حملى ، وكنت شاحبا مضى . وأمسكت عن الطعام . وكان السكون يحزننى ، والضجيج يؤلمنى ، وأنفقت الليالى مؤرقا مسهدا . والأيام على السرير ممدداً ، دون أن توانى الرغبة ولا القوة على النهوض . وكان الشيخ قريب أسمى ، وهو الوحيد الذى يمكن أن يهتم بأمرى ، قد ذهب لإتفاق بضعة أشهر فى «أبروز» على بعد ثلاثين مرحلة من نابولى حيث اعتزم إنشاء بعض المصانع . فاستدعيت ، طيبيا فأقبل وفخنى وجس نبضى ، وقال لى :

لانى لست أشكو أى داء . والحق لانى كنت أشكو داء لا يعرف له طبعه .
دواء ، داء يتصل بالنفس والخيال . ومضى لسبيله ولم أره بعد ذلك .

— ٤ —

وفى اليوم التالى شعرت بأنى أبلغ من سوء الحال بحيث جعلت أبحث
فى ذاكرتى عن يمكن أن أنتظر منه بعض المعونة والشفقة لو حدث
أنى لم أبل من مرضى . وكان من الطبيعى أن تراود ذهنى صورة أسرة
صياد المرجلينا المقلّة ، التى كنت لا أزال أعيش بينها بالذكرى .
فأوفدت صبيّا كان يخدمنى ليمحى عن أندريا ، وينبئه أن أصغر
الشابين المغترّبين منا يشكو علة ويطلب أن يراه .

وعندما بلغ الصبي رسالته كان أندريا فى عرض البحر مع يبيلىنو .
وكانت الجدة مشغولة ببيع السمك على رصيف شيابا ، وكانت
جرازيلا وحدها فى المنزل مع أخويها الصغيرين . فلم تكدر تستغرق
من الوقت إلا ما يكفى لى تهنئ بهما إلى إحدى جاراتها ، وترتدى
أحدث ثيابها من طراز بروسيّدا ، ثم تبعت الصبي الذى دلها على الشارع
والدير القديم ، وتقدمها على السلم .

سمعت نقرأ خفيّفا على باب غرفتى . وإذا الباب ينفّث كإنما قد
دفعته يد خفية : ورأيت جرازيلا . وما إن رأتنى حتى أطلقت صيحة .
لإشفاق وخطت بضغّ خطوات مرتبة نحو سريريّ ، ثم ملكت نفسها
فأحجمت وتوقفت وقد انمعدت يداها وتدلتا على مئزرها ، ومال رأسها
على كنفها لإشفاقا وتحنّانا وحدثت نفسها فى صوت خفيض : د ياله من
شاحب ، وكيف تأنى لآيام قلائل أن تغير وجهه إلى هذا الحد ١٤ ،

ثم أردفت وهى تلتفت وتبحث بعينها عن رفيق فى الغرفة . وأين الآخر ؟ . فقلت لها : لقد رحل ، وإلى وحيد ولا يعرفنى فى نابولى . أحد . . فقلت : رحل ؟ وتركك هكذا وحيداً ومريضاً ؟ ما كان يجبك . إذن آه ! لو قد كنت مكانه لما رحلت ، مع أنى است شقيقك ولم تربطنى بك معرفة إلا منذ يوم العاصفة ! .

- ٥ -

شرحت لها أنى لم أكن مريضاً حينما غادرنى صديقى . فاستعادت فى حدة وفى لهجة تأنيب يمزج فيها الحنو والهدوء : لىكن كيف ؟ ألم يخطر ببالك أن لك أصدقاء آخرين فى المرحليتنا ؟ . ثم أضافت فى حزن وهى تنظر إلى أكامها وذيل ثوبها ، آه . لى أرى !

ذلك أننا قوم فقراء ، ولعلنا كنا نثير خيلك لو ولجنا هذا البيت الجليل . . ثم استأنفت وهى تمسح عينيها اللتين لم تكدف عن إبقائهما مكدتين فى جبينى وذراعى الواهنتين : على حد سواء . حتى لو احترقنا ، كنا سنجىء دائماً .

فأجبت مبتسماً : اى جرازىلا المسكينة ، وفانى الله شر اليوم الذى أخجل فيه من يحبونى !

- ٦ -

عمدت إلى الجلوس على مقعد بجوار سريرى ، وتسامرنا قليلاً . وكانت نبرة صوتها ، وصفاء عينيها ، والاستسلام المطمئنين الهادى البادى فى وضعها ، وسداجة محياها ، ولهجة نساء الجوز وأولئك اللاهثة والشاكية فى وقت معا ، واللى تذكر — كما هو الشأن

في الشرق — بلهجة الامة الخاضعة حتى في رجفات العشق نفسها ،
وأخيراً ذكرى أيام الكوخ الجميلة التي أنفقتها معها في وهج الشمس ،
شمس بروسيدا هذه التي خلت أشعتها ما برحت تنساب من جبينها ومن
جسدها ، ومن قدميها إلى غرفتي الحزينة الكهيبية : كل ذلك كان
أثناء نظري وإنصاتي إليها ينتشلي من ضعفي ومن ألمي لدرجة أنني حسبت
نفسى قد أبليت على حين فجأة من مرضى . كان يخيل إلى أنى حالما
تخرج سأنفض وأمشى . ومع ذلك فقد كان يبلغ من شعورى
بالارتياح في وجودها ، أنى جعلت أطيل الحديث معها بكل مقدورى
. وأنى انتحلت ألف حجة لاستبقيا ، مخافة أن تتعجل الانصراف فينصرف
معها ما شعرت به من ارتياح .

وقامت على خدمتى شطراً من النهار دون وجل ، ولا تحفظ متكلف
. ولا احتشام زائف ، خدمة الأخت لأخيها فلا تفكر في أنه رجل .
وراحت تشتري لى برتقالاً . وكانت تقضم القشرة بشناياها الجميلة
لتنزعها ولتسكب العصير في قدحى عاصرة إياه بأناملها . وانترعت
من جيدها أيقونة فضية صغيرة كانت تتدلى في شريط أسود وتحتفى
في صدرها . وعلقتها بدبوس في سائر سريرى الأبيض . وأنشأت
تؤكد لى أنى سأبرأ عاجلاً بفضل الصورة المقدسة . ثم بدأ النهار
يولى فأنصرفت بعد أن عادت من الباب إلى سريرى عشرين مرة
لتستفسر عما يمكن أن أرغبه ثانية . ولثوصينى بالحاح أن أدعو الصورة
بكل تقوى قبل أن أنام .

سواء ببركة الصورة والدواء الذى أدته لها جرازىلا بلا شك ، أو للتأثير المطمئن لرقيا الخنان والاهتمام التى طالعتنى فى ملاحظها ، أو لمها هيام لى وجردها وحديثها من ناعية فائنة لطفت نفسها كل كيانى المريض وسكنته ، فإنها ما إن خرجت حتى أخذتني سنة من النوم الهادى .
العميق .

وفى الصباح التالى ، حينما استيقظت ورأيت قشر البرتقال المنثور على أرضية غرفتى ، ومقعد جرازىلا لا يزال ملفوتا صوب سريرى كما تركته وكما لو كانت ستعاود الجلوس عليه ، والايقونة الصغيرة المدلاة على سانرى بالشريط الحرير الأسود ، وكل آثار وجود المرأة وعنايتها هذه التى كانت تعوزنى منذ أمد بعيد ، بدالى أول الأمر قبل أن أفيق تماما أن أمى أو إحدى أخواتى قد ولجت غرفتى فى المساء . وإن هى إلا أن فتحت عيني جديدا واستعدت أفسكارى واحدا لآخر آخر حتى تراءت لى صورة جرازىلا كما رأيتها أمس .

وكانت الشمس ساطعة ، والراحة قد قوت أعضائى أيما قوة ، واعتكفى فى غرفتى أثقل على قلبى ، وحاجتى إلى أن أسمع ثانية نبرة صوت معروف تلح على إلحاحا بلغ من شأنه أنى نهضت من فورى . مع ما كنت عليه من سقام وترنح ، وأكلت بقية البرتقال ، وركبت عربة من الميدان ، واتخذت بالغريزة الطريق إلى المرحليتنا .

وعندما شارفت بيت أندريا الصغير الواطى* ، صعدت السلم المفضى إلى سطح القبو ، المطلة عليه غرف الأسرة ووجدت فوق السطح جرازىلا ، والصيدا الشيخ ، وبيبو ، والطفلين . وكانوا فى تلك اللحظة متأهبين للخروج ، مرتدين أبهى ثيابهم للحضور لعيادى . وكان كل منهم يحمل فى سلة أو فى منديل أو فى يده هدية من الهدايا التى تخيل أولئك القوم الفقراء أن تكون ألفت هدية لمرضى وانعما : هذا قنينة من نبيذ إيسكيا الأبيض الذهبى ، وقد استعيض عن الفلين فى سدها بصمام من حصا لبان والعشب المعطر يضمنم القنينة ، وهذه بعض الثين المجفف ، وتلك ثمرة من ثمار البشمالا والأطفال الصغار ثمار يرتقال . كانت نفحة من قلب جرازىلا قد صرت فى جميع أعضاء الأسرة .

وئدت عنهم صيحة دهش عندما رأوا فى دأزال شاحبا وضعيفا لسكن واقفا ومبتسما أمامهم . أما جرازىلا فلقرط ما استخفها من فرح تركت البرتقال يتدحرج من مشزرها على الأرض ، وعدت تحوى مضاربة كفا على كسف وصاحت : لقد قلت لك إن الصورة سوف تشفيك إن باءت ليلة واحدة فوق سريرك . فهل خدعتك إذن ؟ . فأردت أن أعيد لها الصورة ، فتنازلتها من صدرى حيث وضعتها ساعة خروجى فقالت لى : قبلها أولا ، فقبلتها وقبلت أيضا طرف أناملها التى

عندتها لتأخذ منى الصورة . فأضافت وهي تضعها في جيدها وتندسها في صدرها ، سوف أعيدها إليك إن مرضت ثانية . لأنها تنفع لاثنتين ، وجلسنا على الشرفة في شمس الضحى . وكان الجميع يبدون من المرح كما لو أنهم لقوا أخا أو ابنا يرتد إليهم بعد سفر طويل : إن الزمن الذي لاغنى عنه لشكويين الصداقة الحيمة في الطبقات العليا ، لا لزوم له في الطبقات الدنيا . فالقلوب تفتتح بلا احتراس ، ثم تلتحم في الحال لأنه ليس وراء العواطف مصلحة محل اشتباه : ففي ثمانية أيام يتسكون من الأسرة والقربة الروحية بين أهل الطبيعة مالا يتسكون في عشر سنين بين أهل المجتمع . كسنا ، هذه الأسرة وأنا ، أقرباء من ذلك الحين .

أدلى كل منا بما أصابه من خير أو شر منذ أن افترقنا . كان البيت الفقير يلاقى أسباب التوفيق . فقد كان القارب مباركا . وكانت الشباك موفقة . ولم يسبق أن أتى الصيد بهذا المحصول الوفير ، فلم تسكف الجدة لمهمة بيع السمك للناس أمام الباب ، وكان يبيو ، الفخور القوي ، يمدل نوتيا في العشرين من عمره مع أنه لم يتعد الثانية عشرة . أما جرازيل فقد كانت تتعلم مهنة أفضل ممن مهنة الأسرة المتواضعة فإن أجراها ، المجزى بالقياس إلى عمل فتاة ، والمنتظر أن يزيد بفضل مواهبها ، كان يكفي لكسب أخويها الصغيرين وغذائهما ، ولتسكويين بائنة أنفسهما عندما تبلغ سن الزواج وتفكر فيه .

تلك كانت تعبيرات أهلها . كانت تتعلم صناعة المرجان . وكانت تجارة المرجان وصناعته إذ ذاك الثروة الرئيسية في صناعة مدن

إيطاليا الساحلية . وكان أحد أحوال جرازيليا ، شقيق الأم التي فقدتها
وتيس عمال في مصنع ، المرجان الرئيسي في نابولي . ولما كان غنيا
بالقيام إلى طابقتها ، ومديراً لعدد كبير من العمال من الجنسين ، لا يكفون
لتلبية الطلبات الواردة من أنحاء أوروبا بشأن هذه الحلى ، فقد فكر في ابنة
أخته ، وحضر منذ أيام فلانل ليضمها إلى عاملاته ، وقد جماعها بالمرجان
وبالأدوات ، وعلما الدروس الأولى لهذا الفن البسيط ، وكانت
العاملات الأخريات يشتغلن جماعة في المصنع .

ولما كانت جرازيليا ترى الأطفال وحدها نظراً لغياب جدتها
والصيد غيا باقرباً مستعراً ، فقد كانت تقوم بحرفتها في المنزل وكان
خالها الذي لا يستطيع أن يتغيب كثيراً ، يوفد إليها منذ بعض الوقت
ابنه الأكبر ، وهو فتى في العشرين من عمره ، سديد الرأي ، متواضع
الطبع ، مستقيم القصد ، ومن خيرة الصانع ، واسكنه سادج الذهن ،
لبن العظم ، ساءه التسكين بعض الشيء كان يحى في المساء ، بعد إغلاق
المصنع ، ليفحص عمل بنت خالته وليصقل استعمالها للعدد ، وليلقنها
أيضاً مبادئ القراءة ، والمكتابة ، والحساب . قالت لي الجدة في صوت
خافت حينما كانت جرازيليا تشيح بعينها وعسى أن ينتهي الأمر في مصاحبة
الاثنين ، وأن يصبح المعلم يوماً خادماً لحظيقتها ، فرأيت أن العجوز تراو
ذهنها فكرة زهو وطموح في شأن حفيدتها . بيد أن جرازيليا لم يكن
يساورها شيء من هذا القليل .

افتادتني الفتاة باليد إلى غرفتها ، لتتيح لي أن أعجب بأشغال المرجان الدقيقة التي خرطتها وصقلتها . كانت مصفوفة بإحكام فوق قطن في قطع صغيرة من الورق المقوى بجانب قائم السرير . وأرادت أن تصنع واحدة منها أمامي ، فقامت بإدارة عجلة المخرطة بطرف قدمي ، قبالتها ، في حين عرضت هي غصن المرجان الأحمر للنشار الدائري الذي قطعه في سرير ، ثم جعلت تدور هذه القطع ، بأن أمسكتها بطرف أصابعها ، وعرضتها للسن .

كان الغبار الوردي يغمر يديها ، وكان يتطاير في بعض الأحيان حتى يحياها فينذر على خديها وشفتيها خضاباً خفيفاً ، فيبدي عينيها أمعن زرقة وأشد مناء . ثم جعلت تمسح نفسها مستضحكة وتلغض شعرها الفاحم من الغبار ، الذي غمرني بدوري . وقالت : أليست هذه حرفة جميلة لابنة بحر مثلي ؟ إننا مدينون للبحر بكل شيء : ابتداء من قارب جدي ، إلى الخبز الذي نتبلغ به ، إلى تلك القلائد وتلك الأقراط التي سوف أزين بها يوما ، بعدما أكون قد صقلت وصنعت منها كثيراً لمن يجاوزني غنى ويقنني حسنا .

كذلك انقضى الصباح في سمر ، وفي جنل ، وفي عمل دون أن تجول بخاطري فمكرة الانصراف . وشاطرت الأسرة وجبة الظهر ، كانت الشمس ، والهواء الطلق وراحة البال وزهد المائدة التي لا تجعل سوى بعض الخبز والسماك المقل والتفاكهة المحفوظة في القبو — كانت قد أعادت

لى شهيتى وقوقى . وبمد الظهر عاونت الاب فى رفق خيوط شبكة قديمة
منشورة فوق السطح .

كان ما نسمعه من وقع قدم جرازىلا الرتيب وهى تقدير المسن ،
وحفيف مغزل الجدة ، وصوت الأطفال اللذين يلعبون بالبريق عند
مدخل البيت يصاحب هملنا فى لحن متسق . وكانت جرازىلا تخرج من
آن لأن كما تنفض شعرها فى الشرفة ، وكنا نتبادل نظرة ، أو كلمة
ودية ، أو بسمه . وكنت أشعر بسعادة ، لست أدري مصدرها ، تتولانى حتى
تلبس شفاف نفسى . كنت أتمنى أن أكون عوداً من أعواد الد المنائلة فى
سور الحديدية ، أو عظاية من العظايات التى تستدق فى الشمس على مقربة منا
فوق الشرفة وتسكن صدوع جدار البيت مع هذه الأسرة الفقيرة .

- ١١ -

بيد أن روحى ووجهى كانا يكتنبان ويظلمان كلما أشرف النهار
على الإدبار . كان يتولانى الأسى عندما أفسر أن لا مناص من العودة
إلى غرفتي بالفندق . وكانت جرازىلا أول من لاحظ ما يعترفينى .
فذهبت تلقى بضع كلمات فى مسامع جدتها فى همس خافت .

قالت لى السيدة العجوز كأنها تحدث أحد أبنائها ، لماذا تغادرننا
كذلك ؟ ألم نكن معا فى خير حال فى بروسيدا ؟ ألمنا فى نابولى على ما
كننا عليه ؟ إنك لتبدو مثل طائر فقد أمه فانطلق يعسس صائحاً حول كل
عش يصادفه . تعال معنا واسكن عشنا إن وجدته يلىق بسيد رقيق مثلك .
ليس فى المنزل سوى ثلاث غرف ، غير أن بيوتنا فى القارب . وسوف

شكفى غرفة الاطفال جرازىلا على أن يمكنها العمل نهائياً فى الغرفة التى
صنعتام فيها أنت . نخذ غرفتها ، وانتظر هنا عودة صديقك . لأن حال
فتى طيب وحزين مثلك ، وحيد فى شوارع نابولى للمسا يشق على
النفس كلما ورد على الخاطر .

استخف الفرح الصياد ، وبيبو ، بل الطفلين الصغيرين أيضاً ، وقد
أحبوا الغريب فعلاً استخفهم الفرح للمكرة السيدة العجوز . فألحوا
بشدة ، كلهم دفعة واحدة ، لى أقبل عرضها . ولم تقل جرازىلا شيئاً
ولكنها كانت تنتظر ردى على إلحاح أهلها يرجع بين تداريه بتشغل
مفتعل . كانت تكل الأرض بقدمها ؛ بحركة عصبية غير إرادية ، لدى
كل سبب تمليه الفطنة تذرعت به لعدم القبول .

وأخيراً شخصت إليها ببصرى . فوجدت أن مقلتها مغللتان
مما لفتان أكثر مما عهدتهما . وأنها تفرك بين أصابعها عوداً من أعواد
البحان المستنبت فى أصيص على الشرفة وتسحق فروعه مسحقاً ، وفهمت
هذه البادرة أفضل من الخطب المنهية . فقبلت ما عرض على من
مشاركة فى الحياة . فصنعت جرازىلا واستخفها الطرب . ووثبت
نافرة دون أن ألتفت ، كأنما أرادت أن تأخذنى بكلمتى ، دون أن
تدع لى فرصة للراجع .

- ١٢ -

استدعت جرازىلا بيبو . وفى لحظة نقلت هى وشقيقها إلى غرفة
الطفلين سريرها . وأثأها الفقير . ومرآتها الصغيرة المؤطرة بخشب مطلى

والمصباح النحاسى . وصور العذراء المدلاة على الجدار مثبتة بالدبابيس . والمنضدة . والمخرطة الصغيرة التى تصنع بها المرجان . واغترقا من البئر ماء . ورشاه براحة اليد على الأرضية . وكنسا بعناية غبار المرجان من فوق الجدران والبلاط . ووضعوا على دعامة النافذة لمصيصين هما أشد الأصص التى وجدوها فوق السطح إيناعا وأذكاه فواحا بأرج البلسم والخزامى . ولو كان يبيو سيقود خطيبته فى المساء إلى بيت أبيه لما بذلا من العناية فى إعداد غرفة زفافه وجلوها فوق ما بذلا . وكنت أعوانهما ضاحكا على هذا الهرج .

وعندما أعد كل شيء . اصطحبت يبيو والصيد لا يتباع واجتلاب ما يلزمى من أثاث قليل . فابتهت سريراً من حديد . ومنضدة من الخشب الأبيض . ومقعدين من الخيزران وبجرة نحاسية من الجمار التى يحرق فيها نوى الزيتون فى أماسى الشتاء للاستدفاء . وكانت حقيقتى التى أرسلت لإحضارها من غرفتى تحتوى البقية الباقية . وفى المساء نفسه ربت^ت فى غرفتى الجديدة . ولم أستيقظ إلا على شتمشة عصفير الجنة . المراحة ، التى كانت تلج غرفتى من مصراع مكسور فى النافذة ، وعلى صوت جرازىلا التى كانت تشدو فى الغرفة المجاورة مصاحبة شدوها . بحركة مخرطتها الرتيبة .

- ١٣ -

عمدت إلى فتح النافذة المظلة على حدائق الصيادين والغسالات . الصغيرة المحصورة بين صنخور البوزيليب وميدان المارجليتنا .

كانت بعض كتل الجرانيت الأسود قد تدحرجت حتى تلك الحداائق وعلى مقربة من المنزل . وكانت بعض أشجار التين الضخمة التي نبتت معتصرة بين هذه الصنخور ، تعتملها بأذرعها المنمسرجة البيضاء ، وتغطيها بأوراقها العريضة الثابتة . ولم يكن يرى الرائي من ناحية المنزل هذه ، في حداائق القوم الفقراء هذه ، سوى بضع آبار تعملوها عجلة كبيرة ، يديرها حمار ، لرى السكرنب والجزر ، بوساطة أقنوات من الشمار ، ونساء يحففن الغسيل على حبال ممددة بين أشجار الليمون ، وأطفال يلعبون أو يكونون فوق شرفات بضعة بيوت بيضاء منثورة هنا وهناك بين الحداائق . إن هذا المنظر المحدود ، الشعبي ، السكشيب ، لضواحي مدينة كبيرة ، بدلى رائعا إذا قورن بالواجهات العالية التي تحيط بالشوارع الضيقة ، والجماهير الصاخبة في الأحياء التي يارحتمنا من قريب . فقد كنت أتنفس هواء طلقا بدلا من تراب ذلك الجرب البشري التي كنت أتنفسه وناره ودخانها . وكنت أسمع نقيق الخمر ، وصياح الديكة ، وحفيف الأوراق ، وأنين البحر المتناوب بدلا من خبيب العجلات ، وصراخ الناس الحاد ، والرعد المتصل لتلك الأصوات المزعجة التي لا تتيح في شوارع المدن الكبرى أية راحة للأذن ولا أية سكيننة للذهن .

لم يكن في مقدوري أن أنتزع نفسي من سريري ، حيث كنت أستمرى متلذذا هذه الشمس ، وهذه الأصوات الريفية ، وتحويم الظاهر هذا ، وراحة الفكر هذه التي لا يعكر صفوها معكر ، وحيث كنت أشاهد عرى الجدران ، وخواء الغرفة ، وغياب الأثاث ، فأجد

لذة في التفكير في أن هذا البيت الفقير كان يحبني على أقل تقدير ، وأنه ما من طنافس ولا رياش ولا ستائر من حرير تستحق أدنى دأب أو اهتمام . إن جامد الإحساس ، إذا أوتي ذهب العالم كله ، لا يستطيع أن يشترى خفقة واحدة من خفقات القلب ، ولا شعاعا واحدا من نظرة حنون .

كانت هذه الخواطر تهددني في إغفائي هدهدة رقيقة ، وكنت أحس أني أستعيد الصحة والطمأنينة . ودخل يلبو غرفتي مرارا ليرى هل أحتاج إلى شيء من الأشياء . وأحضر لي فوق سريري بعض الحنظل والعنب فأكلته راميا الفتات والبذر للعصافير . وكان الوقت قبيل الظهيرة . وعندما صحوحت كانت الشمس تتسلل إلى غرفتي بأشعتها الساطعة وفوردها الخريفي الرقيق . وانفقت مع الصياد وزوجه على أن أدفع كل شهر مبلغا طفيفا لإيجارا لغرفتي ، ومشاركة بئر يسير في نفقات المنزل . وكان المبلغ زهيدا ومع ذلك وجده أوائك القوم الطيبون باهظا . وكان جليا أنهم لا يسمعون إلى ابتزاز مالي بل على النقيض يشعرون بالمدى لأن فقرهم المدقع وزهد حياتهم الشديد لا يتيحان لهم أن يكرموا وفادتي إكراما كانوا يشعرون به نظرا لو أنه لم يكلفني شيئا . جعلوا يعنيفون رغيفين على الأرغفة التي يشترونها الأسرة كل صباح ، وقليلًا من السمك المسلوق أو المقلّي في الغذاء ، ومن منتجات اللبن والفاكهة المخففة في الماء ، ومن الزيت لقمديل ، ومن الوقود لأيام البرد القارس . كان هذا كل شيء . وكانت بضعة حبات ، من النعاس ، عملة أهل نابولي الصغيرة ، تكفي لنفقاتي الشخصية اليومية . ما فهمت حمري أفضل مما فهمت أن السعادة لا صلة لها بالترف . وأن

الإنسان يمكنه أن يشتري منها بفلس من نحاس أكثر مما يشتري بكيس من ذهب إذا عرف كيف يجدها حيث أودعها الله .

- ١٤ -

عشت هكذا في أثناء أشهر الحريف الأخيرة وأشهر الشتاء الأولى .
لأن بهجة أشهر نابولي هذه وصفاءها تجعلها لا تفترق عن سابقاتها .
وما من شيء كان يكدر هدوء حياتنا الرتيب . ولم يعد الشيخ وحفيده
يغامران بالتوغل في عرض البحر بسبب هياج الرياح المتكرر في هذا
الموسم . فواصل الصيد بطول الشاطئ ، وكان معكمم الذي تبعه الأم
في « البحرية » يكفى حياتهم الزهيدة كل الكفاية .

وكانت جرازيللا تتقدم في إتقان حرفتها ، وقد زكا عودها وزها
حسنها في الحياة الوادعة المستقرة التي عاشتها منذ اشتغلت بصناعة المرجان
وكان أجرها الذي يحضره لها حالها يوم الأحد لا يسمح لها بأن تسمى
لاخويها الصغرى عيشة أنظف وكسوة أفضل وبأن تلحقهما بالمدرسة
خمس ، بل أن تهيئ لجدتها ولنفسها قطع ثياب أغلى ثمنًا وأوفر
أناقة مما ترتديه نساء الجزيرة : من عصابات حريرية حمراء تتدلى من
خلف الرأس على الكتفين في مثلث طويل ، وأحذية دون عقب ، لا
تغطي سوى أصابع القدم ، موشاة ببق من فضة ، وسترات حريرية
سيرا تشققها خطوط سوداء وخضراء : تلك السترات المزينة بجذائل
تتموج مفتوحة على الفخذين فتبدي من أمام رشاقة القوام وأعطاف
الجيد المزين بالقلل إلى أقرط كبيرة منقوشة تشابك فيها خيوط الذهب
بمستحق اللؤلؤ إن أفقر نساء الجزر اليونانية يتجملن بتلك الحلى وتلك الزينة
وما من مأساة ترغمن على الإفلاع عنها . ففي الأقاليم التي حب الجمال فيها أعنف

منه تحت سمائنا ، والتي الحياة فيها هى الحب ، ليست الحلى ترفا في نظر المرأة : لأنها عندها الضرورة الأولى وربما الوحيدة .

- ١٥ -

عندما كانت جرازيل تخرج من غرفتها إلى الشرفة ، يوم الاحد أو أيام الأعياد ، لابسـة هذه الثياب ، متحلية ببعض أزهار الرمان أو الورود الحمراء في مفرق شعرها الفاحم ، عندما كانت تدبخر ذهابا وجيئة أمام نافذتي مثل طاووس يتلألأ في وهج الشمس فوق السطح ، مصفية إلى دوى الأجراس في الكنيسة المجاورة ، عندما كانت تبحر مثاقلة متخطرة قدميها الخبيستين في نعالها المنقوشة بالمينا . وهى تحدجها بنظرها ، ثم ترفع رأسها بتأود الجيد المعبود كىما يتأوج مندبها الحريرى وشعرها الأثيث على كتفيها ، عندما كانت تستشف أنى أنملى فيها ، كانت تنضرج بمسحة من حمرة كأنها خبلى خفراء أن تكون على هذا المبلغ من الجمال ، وفي بعض الأحيان كانت نضرة جمالها الجديدة تؤثر في نفسى حتى ليخيل إلى أنى أراها لأول مرة ، وأن ألقى المعنادة بها تتحول إلى شيء من الاستحياء والافتتان .

بيد أنها ما كانت تسعى إلى أن تفتن أحدا من الناس ، وكان حبها الغريزي للزينة مبرا من كل زهو ومن كل دلال ، حتى لأنها كانت تعقب الحفلات الدينية مباشرة تبادر إلى التجرد من زيبتها الثمينة ، وإلى ارتداء البسوة البسيطة المصنوعة من الصوف الخشن الأخضر ، وثوبها الهندى المخطط بالأحمر والأسود ، وإلى لبس النعال ذات العقب من الخشب

الابيض ، التى كانت تحب طول النهار فوق الشرفة خبيب ، والقباقيب ،
الزنانة التى تلبسها إمام الشرق .

وحينما كانت أترابها لا يحضرن لأخذها إلى الكنيسة أو لا يرافقها
ابن خالها ، كنت أنا الذى كثيرا ما أقتادها وأنظرها جالسا على سلم
البهو الخارجى . ولدى خروجها كنت أشعر بشيء من الزهو فى ذاتي
كما لو كانت شقيقتي أو خطيبتى ، إذ أسمع همسات الإعجاب التى يثيرها
محياها الصبيح الفاتن بين أترابها وبين شباب نوتية وصيف المارجلينا .
إلا أنها ما كانت تسمع شيئا ، ولا ترى من الجمهور أحدا غريبا ،
فيكانت تبسم لى من أعلى الدرج ، وترسم علامة الصليب لآخر مرة
بأناملها المخلصة بالماء المبارك ، ثم تهبط الدرك الذى أنتظرها عند
نهايته مستحيية ، غاضة طرفها .

كذلك كنت أقتادها أيام العيد صباحا ومساء إلى الكنيسة ،
القسلية الوحيدة والنفية التى عرفتها وأحببتها . وكنت أعنى فى تلك الأيام
بأن تكون ثيابي أقرب ما يمكن إلى ثياب نوتية الجزيرة الفتيان ، حتى
لا يدهش وجودي أحد ، وحتى يحسبني الناس أغا للفتاة لتي
أصحبها أوقريبا .

وفى الأيام الأخرى لم تكن تبرح المنزل . أما أنا فقد عدت رويدا
رويدا إلى حياة البحث والدراسة ، وإلى عاداتي الانفرادية التى لا يلبسني
عنها إلا صداقة جرازيل العذبة ، وتبني أسرتها لإبى . أنشأت أطالع
مؤرخى اللغات كافة وشعراها . وكنت أكتب فى بعض الأحيان ،
كنت أحاول بالإيطالية تارة وبالفرنسية تارة أخرى أن أفضض

بالنثر أو بالشعر با كورة فورات النفس هذه ، التي تبدو كأنما تجس
على القلب إلى أن يخفف الكلام وطأها حين يعبر عنها .

يبدون الكلام هو النصيب الوحيد المقدر للإنسان وأن الإنسان
خلق لكي يتخضض عن الأفكار كما تتخضض الشجرة عن الثمار . وإنه
ليعاني الآلام إلى أن يلفظ إلى خارجه ما يعذبه في أحشائه . وإن
كلامه المكتوب هو بمثابة مرآة لازمة له لكي يتعرف نفسه ويستيقن
من وجوده . وطالما أنه لا يرى نفسه في مؤلفاته فهو لا يحس أنه
مستكمل أسباب الحياة . فالذهن له بلوغه ، شأنه شأن الجسد .

كنت في تلك السن التي تحتاج فيها النفس إلى أن تقتات وأن تتكاثر
بالكلام . لكن . كما هو الشأن دائماً كتب حتى أمتعض من تأليفي وأطرحه
باشمئزاز وتقزز . كم حملت رياح بحر نابولي وكم ابتلعت أمواجه
في الصباح . إربا من عواطفي وخواطري في الليل ، مزقتها في النهار
وطارت بعيداً عنى غير مأسوف عليها .

- ١٦ -

وفي بعض الأحيان كانت جرازيل تراقى قد أطلت الاعتكاف
واللزمت السكون أكثر من المعتاد ، فتدخل غرقى خلسة لنتزعنى من
غمار مطالعاني العنيدة أو من مشاغلي . كانت تتقدم دون ديب ورام
مقعدي ، وتشب على أطراف قدميها لترى من فوق كتفى ما أقرأه
أو ما أكتبه ، وإن لم تفقهه ، ثم تسلبني الكتاب وتنتزع القلم من

أصابني بحركة مباغطة وتولى هاربة . فاتبعتها إلى الشرفة ، ويتولاني الغيظ . فتستضحك . فأصفح عنها ، واسكنها تعفنى بجد وحزم مثلاً .
تفعل الأم .

كانت تهمهم بفارغ صبر يختلط فيه الجذ بالهزل . ماذا يقول اليوم ذلك الكتاب لعينيك طيلة هذا الوقت ؟ ألا تنتهى أبداً تلك السطور السوداء المتراسة على هذا الورق القديم الكريه من التحدث إليك ؟ أأست تعرف من الأقاصيص ما يكفي لتحكيها لنا أيام الأحد وطيلة أمامى السنة مثل تلك التى طالما أبكتنى فى بروسيديا ؟ ولمن تدبج آنا الليل تلك الرسائل المسهبة التى ترميها فى الصباح إلى رياح البحر ؟ ألا ترى أنك تضر نفسك ضرراً بالفاً وتبدو شاحباً وشارداً لما تكتب أو تقرأ طويلاً ؟ ألمس أعذب عندك أن تحدثنى ، أنا التى أنظر إليك . من أن تحدث أباماً بطولها هذه الكلمات وهذه الاطيف التى لا تصغى إليك ؟ رباه ! ليتنى كان لى من العقل ما لهذه الأوراق ! إذن لحادثتك طول النهار ، ولأجبتك إلى كل ما تسألنى إياه ، وإذن لما احتجت أن تبلى عينيك كذلك وأن تحرق زيت قنديلك . ، وحينئذ كانت تخبى عنى كتابى وأقلامى ، وتحضر لى صدارى وقبعتى ، وترغمنى على الخروج لتسلىنى .

وكنت أنقاد لها متأنفاً متبرماً لكن مدنفاً متبهاً .

الفصل الرابع

- ١ -

كنت أنطلق في جولات مستطيلة في ربوع الريف مخترقا المدينة
تجارجا على الأرصفة ، إلا أن هذه الرحلات الانفرادية لم تسكن حزينتي
كما كان شأنها في الأيام الأولى لعودتي إلى نابولي . كنت أستمع منفرداً
ولسكني كنت أستمع استمتاعاً رائعا بمشاهد المدينة والشاطئ ،
والسما والامواه . ولم يعد شعوري العابر بهزاتي يشغل على ويضائني ،
كان يجعلني أنطوى على نفسي مستجمعا قوات قلبي وتفكيري . كنت
أعرف أن عيونا وخواطر حبيبة تتبعني في هذه الجروح الغفيرة ، أو في
هذه الفلوات القفراء ، وأن قلوبا عامرة بحبي تنتظر أوبتي .

لم يعد شأني شأن الطائر الذي يتهايح حول وكنات غريبة ، وفقا
لتعبير السيدة العجوز . بل شأن الطائر الذي يحاول أن يطير مبعدا عن
الغصن الذي يحمله لسكره يعرف طريق العودة إليه . كان كل كفي بهد يق
الغائب قد انصب على جرازيلا . بل كان في هذه العاطفة مسحة من
الغضب ، والعمق ، والحنو لا تتوافر في العاطفة التي كانت تربطني به .
كان يخيل إلى أني مدين بهذه إلى العادة وإلى الظروف . أما تلك فقد
تولدت من صميم ذاتي وظفرت بها باختياري .

لم يكن يساورنى منها اضطراب ، ولا غيرة ، ولا انشغال عنيف . بل كانت راحة قلب عذبة وليست حمى . ولم يحل بخاطرى أن أحب على نحو آخر ولا أن أكون محبوباً أكثر . ولم أكن أعرف ما إذا كانت رفيقة أو صديقة أو شقيقة لى أو غير ذلك ، وإنما كنت أعرف فقط أنى سعيد معها وأنها سعيدة معى .

لم أكن أرغب فى مزيد ، فى شئ آخر . لم أكن فى السن التى يحلل المرء فيها لنفسه الشعور الذى يشعر به كما يجد لسعادته وصفاً باطلا . كان حسبى أن أكون هادئاً ، محباً وسعيداً ، دون أن أدري مصدر ذلك أو علته .

كانت الحياة المشتركة ، والتفكير المشترك توثقان كل يوم عرى الالفه البريئة العذبة التى تربطنا ، هى ، طاهرة فى استسلامها بقدر ما أنا هادئ فى خلو بالى .

— ٢ —

منذ الأشهر الثلاثة التى غدوت فيها فرداً من أفراد الأسرة ، وساكنتها تحت سقف واحد ، وشغلت إن صح القول شطراً من تفكيرها ، كانت جرازيل قد تعودت أن تعدنى متباً لقلبها حتى إنها ربما لم تدرك مدى الحيز الذى أشغله منه . كانت معى لا يساورها شئ من هذه المخاوف أو هذه التحفظات التى تعترض العلاقات بين فتى وفتاة ، والتى كثيراً ما تولد الحب من ذات التحولات التى تتخذها المجتمع منه . لم يكن

بخالجه شك . وأنا ذاتى كنت لا أكاد أشك فى أن مفاتيها الطفلية
الخالصة ، التى تعرضت الآن لمزيد من الأشعة فتفتحت بكل نضرة
النضوج المبكر ، قد جعلت حسنها البرىء سطوة لها ، ومثار إعجاب
للحفاة ، ومبعث خطر لى . لم تكن تهتم ألبتة بإخفائه عنى أو تزينه
لعينى . لم تفكر فى هذا الشأن أكثر مما تفكر أخت فيما إذا كانت فى عين
أخيها جميلة أو دميمة . لم تعد إلى زيادة وردة فى شعرها أو لنقص
وردة منه من أجل . أو إلى الانتعال عندما كانت تلبس أخويها
الصغيرين صباحا فوق الشرفة فى الشمس ، أو عندما كانت تساعد جدتها
فى كدس الأوراق الجافة التى سقطت ليلافوق السطح . وكانت تلج
فى كل وقت غرفتى ، المفتوحة دائماً ، وتجلس بنفس البراءة التى يجلس
بها يبيو على المقعد بجوار سريرى .

وفى أيام الغيث كنت أنفق ساعات بطولها منفرداً بها فى الغرفة
المجاورة ، التى كانت تنام فيها مع الطفلين ، وتشغل بصناعة المرجان .
وكنت أعاونها فى حرفتها التى علنتى إياها ، ونحن نسر ونلهو .
ولذا كنت أقل منها مهارة ولكن أقوى بنية فقد كنت أنجح منها
فى ترقيق القطع . وكذلك كنا نؤدى عملاً مضاعفاً ، فكان يوماً
يعدل يومين .

وفى المساء ، على النقيض ، عندما يخلد الأطفال والأسرة إلى النوم
كانت هى تصوير التليذة وأنا أصير المعلم ، كنت ألقنها القراءة والكتابة
بأن أجعلها تهجى الحروف فى كتبى ، وأمسك بيدها لى أعلمها
كيف تخطها . ولذا كان ابن خالها لا يستطيع الحضور كل يوم فإنى

محلله . وسواء لأن هذا الشاب ، الشائه الاحدب ، لم يكن لهته قسطا كافيا من الجاذبية والاحترام ، رغم رفته وصبره ، أو لأنها هي نفسها كان ينتابها كثير من الشرود خلال كانت تظهر معه تقديما أقل بكثير مما تظهره معي . كان نصف ينقضى فى الدعابة ، والضحك ، وتقلايد الملم . وكان الشاب د كلنا بتلميذته وأكثر خجلا أمامها من أن يزجرها . كل ماترومه الفتاة حتى لا يثنى حاجباها الجميلان خنقا حتى لا نزم له شفتيها زمتهما الصغيرة . وكثيراً ما كان سة المخصصة للقراءة فى تنظيف حبوب المرجان ، فى الصوف عن مغزل الجدة ، أو فى رتق الخروق فى

، شىء عنده على مايرام ، مادامت جرازبلا تبتسم له ، فلة انصرافه ، وتقول له وداعا ، ا حيث تود أن تقول له .

— ٣ —

مى فعلى النقيض كان الدرس جدبدا . وكثيراً ما كان يمتد ، النعاس أجهفاننا . وكان يرى الرأى ، من رأسها المخنى ، وب ، وثباتها المنتبه المتجلى فى وضعها وفى سياحتها ، أن الفتاة ، قصارى جهدها فى سبيل النجاح . كانت تعند مرفقها على كتفى ، كتب حيث تخط أصبعى الخط . وتدلها على الكلمة التى يتعين

أن تنطقها ، وعندما كانت تكتب ، كنت أمسك أصابعها بيدي
لأقود قلمها شيئاً ما .

وعندما كانت ترتكب غلطة ، كنت أعنفها في مظهر حازم وحاد ؛
وكانت لا ترد ، ولا تتأفف إلا من نفسها ، وفي بعض الأحيان كنت
أراها موشكة على البكاء ، وعندئذ كنت أعود إلى تلطيف صوتي
وتشجيعها على البدء من جديد . أما إذا أجادت القراءة أو الكتابة
فكنت على العكس أراها تنشد من تلقاء نفسها مكافأتها في إعطوي
إياها وامتنادها . كانت تستدير نحوى ، وقد توردت خجلاً ، وارتسمت
على جبينها وفي عينيها ومضات من الغبطة المزهوة ، وهى أ
فخرأ بالسرور الذى هيأته لى منها بالنصر الصغير الذى أحمر
بجحاحها .

وكنيت أ كافتها بأن أطالع لها بضع صفحات من بول وفرج
التي كانت تؤثرها على كل شيء ، أو بضع أبيات من لوتاس حنا
يصف الحياة الريفية للرعاة التي كانت تسأ كنهم وهرميتي ، أو ع
يتغنى بلوعة محبين من المحبين أو بياسهما . كان جرس هذه الآلة
يجعلها تستعبر وتحلم طويلاً عقب توقي عن المطالعة . ايس لا
صدى أبقى رنيناً وأبقى أمداً من قلب الشباب الذى يتمخض
الحب وليدأ إنه بمثابة استشعار لجميع العواطف سلماً . وهو ق
بمثابة ذكرى لها أو حداد . وكذلك فإنه يدفع إلى البكاء فى
الحياة المتباعدين جميعاً : الشباب ، على الأمنيات ، والحش
على الحسرات .

إن المؤانسات الفائتة في هذه السهرات الطويلة العذبة على بصيرهم المصباح ، وعلى دفع المستشقى تحت أقدامنا ، لم تفض بيننا قط إلى أفسار وألفات غير ما ينشأ منها بين الأطفال . كان كلانا محميا ، أنا بغفلى الباردة تقريبا ، وهى بسذاجتها وطهارتها . وكنا نفرق بنفس الهدوء الذى اجتمعنا به ، وعقب تلك المسامرات المستطيلة بالهظة كنا ننام تحت سقف واحد ، لا تفصلنا غير بضعة خطوات ، شأننا شأن طفلين لعبا سويا فى المساء ، ولا يراودهما فى الحلم شئ يخرج عن تسلياتها البسيطة . وقد كان هذا الهدوء فى العواطف التى لا تنمى بوجودها ، والتى تستمد غذاءها من ذاتها قينا بأن يطول سنين لولا ظرف غير يجرى الأمور ، وكشف لنا عن طبيعة صداقة كانت حسبنا لنسكون على هذا المبلغ من السعادة .

كان سيكو ، وهو اسم ابن خال جرازىلا ، يواظب على الحضور بمثابة تزايد يوما لآخر يوم ، لى ينفق لىالى الشناء مع أسرة البحار . ومع أن الفتاة لم تبد له بادرة إيثار ، بل كان مناط دعايتها وشبه الأدوية فى نظرها ، فقد كان رقيق الحاشية ، موفور الصبر ، جهم التواضع أمامها حتى لأنها لم تتمالك نفسها من أن تتأثر بمجاملاته ، وأن تبتسم له أحيانا بعطف وهدوء . وكان هذا حسبه . فقد كان مجبولا على فطرة

ضعاف القلوب ، لكن رفاقها ، الذين يشعرون بأن الطبيعة قد حرمتهم المزايا التي تجعل المرء محبوباً ، فيتمتعون بأن يحبوا دون تحاب ، والذين يتفانون نفاقاً العبيد مختارين ، إن لم يكن في سبيل إسماعاد المرأة التي هي مضمعون لها قلوبهم ، في خدمتها . وهذه الفطرة من فطر الحب ، إن لم تكن أنبلها فهي أبلغها تأبيراً . فهي تستدر الرثاء والإشفاق والسكنها تستوجب الإعجاب ، أن تحب لكي تكون محبوباً فهذا من خصال الإنسان ، أما أن تحب من أجل الحب فهذا من خصال الملائكة !

- ٦ -

كان ثمة مسحة ملائكية في حب سيكو المسكين تنوارى وراء قسامة القبيحة . لذلك فإنه لم يكن يحس ذلة أو غيرة من الألفة والإيثار اللذين كانت تخصني بهما جرازيلاً أمام أنظاره . بل كان يحبني لأنها تحبني . لم يكن يطلب في عاطفة بذت عمته المسكان الأول أو الممكن الوحيد . بل الثاني أو الأخير : كان أي شيء يكسفيه . ولكي يعجبها لحظة ، لكي يحصل منها على فطرة رضا ، لفظة أو كلمة لطيفة ، لجاء ليبحث عني في قلب فرنسا ويعيدني إلى تلك التي تؤثرني عليه ، بل أعتمد أني لو قد سلبت لبنت عمته ألساً لأبغضني بغضاً .

كانت مبعث زهوه كما كانت موضع حبه . ولعله أيضاً ، وهو الفاتر في دخيلته ، الرزين ، الأريب ، الدقيق كما خالسه ربه وكما جسد له عجزه — لعله كان يقدر تقدير غريباً أن سلطاناً على ميول بنت عمته لن يكون أزلياً ، وأن ظرفاً من الظروف ، ظرفاً محتموماً ، سوف

يفرق شملنا ، وأنى غريب ، ومن بلد بعيد ، وأن لى من المسكانة والثروة
 ما لا يتناسب بداهة مع مكانة ابنة نوق من بروسيدا ، وأن الوشيجة
 الخيمة القائمة بينى وبين بنت عمته ستقطع يوما مثلما انصلت ، وأنها
 حينئذ ستبقى له وحيدة مهجورة يائسة ، وأن هذا اليأس نفسه سوف
 يلين قلبها ويسلبه إياه محطما لاسكن كاملا غير منقوص . إن دور المواسى
 والصديق هذا كان الدور الوحيد الذى يمكنه أن يطمع فيه . إلا أن
 أباه كان يضمن له فكرة أخرى .

- ٧ -

كان الاب يعرف حب سيكو لبنت أخته ، ولذا كان يحب ليراهما
 بين آونة وأخرى ، ولذا تأثر بجمالها ورجاحة عقلها ، وتعجب لما حققته
 من تقدم سريع فى مزاولة صناعتها ، وفى القراءة والكتابة ، وفكر
 من جهة أخرى أن ما حاق بسيكو من أراء الطليعة ان يسمح له أن
 يصبو إلى غير ما يمليه الأرب والقراية من عواطف ، فقد قرأ أن يزوج
 ابنه من بنت أخته . ولما كانت ثروته موفورة ، وكبيرة بالقياس إلى
 حامل مثله ، فقد كان يعد طلبه فضلا سابعا لن يفسر أندريا وزوجته
 والفتاة فى مقاومته . وسواء أكان قد حادث سيكو فى شأن مشروعه ،
 أو كان قد أخفى عنه فكرة ليفاجئه مفاجأة سارة ، فقد عقد العزم على
 أن يفاتحهم فى الأمر .

- ٨ -

وفى عشية عيد الميلاد عدت متأخرا عن المعتاد لآخذ مكانى فى عشاء
 الأسرة ، فلاحظت شيئا من الفتور والاضطراب فى وجه أندريا

وزوجته . ورفعت أنظارى إلى جرازىلا فرأيت أنها كانت قد بكّت .
وكان وجهها عادة يبالغ من الصفاء والمرح لدرجة أن مسحة الحزن غير
المألوفة هذه كانت كأنما تغطيها بحجاب حقيقى . حتى لكان ظلال أفكارها
وقلبها قد انتشرت على قسماها . ولبثت متصليا صامتا لا أجرؤ على
سؤال أولئك القوم المساكين ولا محادثة جرازىلا ، خشية أن يفجر
مجرد سماع صوتى قلبها الذى يبدو أنها لا تسكاد تكبته .

لم تكن تنظر لى ، على خلاف عادتها . كانت تتناول بيد شاردة
كسرات الخبز فتضعها فى فمها ، وتنظاها بأنها مقبلة على الأكل ، ولما كنت
لم تستطع . فقد كانت تلتقى بالخبز تحت المائدة . وقبل نهاية الوجبة
الحزينة تعللت بحجة الذهاب لتنويم الأطفال ، وقادتهم إلى غرفتهم ،
واحتمست نفسها هناك دون أن تودع والديها أو تودعنى ، وتركنا
وحدنا .

وعندما خرجت ، سألت الأب والام عن علة خطورة أفكارهما
وحزن ابنتهما . فرويا لى أن أبى سيكو جاء أثناء النهار إلى البيت ،
وطلب يد حفيدتهما لابنه ، وأن هذا يعد سعادة كبرى وحظا مواتيا
للأسرة ، وأن سيكو سوف يكون ذاميسرة ، وأن جرازىلا - وهى طيبة
السريرة ستأخذ معها أخويها الصغيرين وتربهما كأنهما ابناها ، وهكذا
تكون أيام شيخوختها مؤمنة ضد البؤس ، وأنهما وافقا على هذا
الزواج شاكرين وحدنا جرازىلا فى شأنه فلم تحب بشىء خفرا واستحياء .
وأن صمتها ودموعها كانا نتيجة مفاجأتها وانفعالها ، بيد أن هذا سيمر
مرور الذبابة على الزهرة ، وأخيرا أنه قد تقرر فيما بين أبى سيكو وبينهما
أن تعقد الخطبة عقب عيد الميلاد .

وإبنا يتكلمان إلا أنى كنت كففت عن الاستماع منذ زمن طويل .
 لم أكن قد استجليت قط كنهه العاطفة التى أكنها لجراذيل . لم أكن
 أعرف كيف عشقتها ، وما إذا كان ميلى نحوها يتألف من الألفة
 الصافية ، أو الصداقة ، أو العادة ، أو من كل هذه العواطف مجتمعة .
 إلا أن فكرة أن أرى كل وشائج الحياة والقلب العذبة هذه تتغير هكذا
 بغتة بعد أن توطدت وكأنها التجمت بينها وبينى دون أن تدري ،
 فكرة أنها سوف تنزع منى لتمطى لجأه لغيرى ، وأنها بعد أن كانت
 رفيقتى وشقيقتى كما هو شأنها الآن سوف تصبح غريبة عنى غير حافلة
 بى ، وأنها سوف لا تكون هنا بجاني . وأنى لن أعود فأراها فى كل
 حين ، ولن أعود فأسمع صوتها ينادينى ، وأنى لن أطالع فى عينها
 هذا الشعاع المشرق دائماً نحوى من النور الرقيق والحنان الدفوق الذى
 ينير قلبى فى عذوبة ويذكرنى بأسمى وأخواتى ، والفراع والليل العميق
 اللذان أتصورهما يكتنفانى نجاة ، هنا ، غداة يمضى بها زوجها إلى بيت
 آخر ، وهذه الغرفة التى ان تنسام فيها وغرقتى التى لن نلجها ، وتلك
 المائدة التى لن أراها تختلف إليها ، وتلك الشرفة التى لن أستمع فيها إلى
 ديب قدمها العاريتين أو إلى صوتها فى الصبح عند صحوى ، وهذه
 السكنائس التى لن أقودها إلاها أيام الأحد ، وهذا القارب الذى سيظل
 مكانها فيه شاغرا والذى لن أتحدث فيه إلا إلى الريح والموج ، والصور
 المزدهجة لكل هذه العادات الرقيقة فى حياتنا الماضية التى تتوارد
 على خاطرى دفعة واحدة ثم تنبخر على حين غرة لتتركنى كأنما فى هوة
 حين العزلة ومن العدم ، كل ذلك أشعرنى لأول مرة بما كانت بالقياس

إلى صحبة هذه الفتاة ، وأوضح لي أيما إيضاح أن العاطفة التي تربطني بها ، حياً كانت أو صداقة ، كانت أقوى مما أعتقد وأن فتنة حياتي الحمائية في نابولي ، دون أن أدري أنا نفسي ، لم تكن في البحر ، ولا في القارب ، ولا في الصيد ، ولا في زوجته ، ولا في يدي ، ولا في الأطفال وإنما في مخلوق واحد ، وأن هذا المخلوق إذ يختفي من البيت يختفي معه كل شيء . هي على الأقل في حياتي الراهنة ، وليس فيها سواها شيء . لقد شعرت بأن هذه العاطفة الغامضة حتى ذلك الوقت ، والتي لم أكن قد أقررت بها قط كالتالي ضربة بلغ من فداحتها أن قاي أصابته منها هزة ، وأني أحسست بشيء من لانهاية الحب فيما تمثل لي من الحزن اللانهائي الذي شعر قلبي لجأه أنه ينغمس فيه .

— ١٠ —

عدت إلى غرفتي في سكون . وارتعيت بملابسي كاملة فوق سريري وحاولت أن أقرأ ، أن أكتب ، أن أفكر ، أن أفهم بعض عمل ذهني شاق يمكن أن يسيطر على اضطرابي . ولما كان ذلك كله عبثاً . كان الاضطراب الباطني من الشدة بحيث لم أستطع أن يكون لدى فكري ، وبحيث أن لإنهاك قواي نفسه لم يمكن أن يفضي إلى النوم . أبدأ ما ترامت صورة جرازيل لغاية الآن في مثل هذه الفتنة ، وهذا العناد أمام أفكاري . كنت أستمتع بها كشئ يراه المرء كل يوم ولا يشعر بمذوبته إلا عندما يفقده . حتى جمالها نفسه لم يكن لي شيئاً يذكر حتى آنذاك فقد كنت أخاطب بين التأثير الذي أحسه منه وبين أثر الصداقة التي يعبر عنها عيها . لم أكن أدري أن ثمة مثل هذا القدر من الإعجاب

ينطوى تحت علاقتي بها ، ولم ين يخالجنى ظن في أن حنانها ينطوى على ذرة من غرام .

لم أدرك ذلك كله ، حتى في الجولات الطويلة التي قام بها قلبي خلال ما انتابني تلك الليلة من سهاد . كان كل شيء غثاظا في ألبى شأنه في عواطفى . كان مثلي كمثل رجل دوخته ضربة ، فاجئة ولا يدري تماما بما يتألم ولما يكسبه يتألم من كل موضع .

وغادرت سربرى قبل أن يسمع في البيت أى صوت . ولست أدري أى غريزة هائسة على الابتعاد بعض الوقت ، كأن وجودى قين بأن يزعج في لحظة كهذه محراب تلك الأمره التي كان مصيرها يضطرب هكذا أمام رجل غريب .

خرجت منها يبيو إلى أنى سوف لا أحضر لبضعة أيام . واتخذت بالصدفة الاتجاه الذى رسمته لى أولى خطواتى . تبعته أرسفة نابولي المستطيلة ، وساحل ريزينا ، وبورنيكا ، وسفوح بركان فيزوف . واستعنت بأدلاء في تورى دبل جريكو ، ورقدت على حجر عند باب صومعة سان مالفاتورى ، في المشمارف التي تذهب عندها الطبيعة المأهولة وتبدأ منطقة اللحم والنيران . وإذا كان البركان منذ مدة في حالة ثوران ، وينفث في كل هزة سحبا من الرماد والأحجار كسنا نسمعها تنحدر في الليل إلى خور اللحم عند سفح الصومعة ، فقد رفض أدلاى أن يرافقنى أبعد من ذلك . فصعدت وحدى ، تسلقت بعناء المخروط الأخير غارسا قدى ويدى في رماد كثيف ومشتعل ينهار تحت ثقل الإنسان وكان البركان يهدد ويرعد بين لحظة وأخرى وكانت الأحجار المحترقة والتي هازالت متوهجة تنهمر حولي كالطر هنا وهناك ثم تنطفئ في الرماد .

وما من شيء أوقفنى . وصلت إلى أقصى حافة فوهة البركان وجلست .

رأيت الشمس تشرق على الخليج ، وعلى الريف ، وعلى مدينة نابولي الباهرة . وكنت متبلدا لإحساس وفاترأ إزاء هذا المشهد الذى يفد السياح من بعد ألف فرسخ معجيين به . لم أكن أبحث فى هذا الخضم الهائل من الضياء ، والبحار . والسواحل . والعمائر التى تلفحها الشمس ، إلا عن بقعة بيضاء صغيرة وسط خضرة الأشجار الداكنة على ظن أن أميز كوخ أندريا . ليس يجدى الإنسان أن يتأمل المدى ويطوقه فإن الطبيعة بأسرها لا تتألف فى نظره إلا من نقطتين أو ثلاث نقاط محسوسة هى مناطق روحه بجماعها . احذف من الحياة الفؤاد الذى يهواك : فإذا ببق لك فيها ؟ كذلك الأمر فيما يتعلق بالطبيعة . امح منها الموضع أو البيت الذى تنشده أفكارك أو تعمده ذكرياتك فما هى سوى فراغ صارخ يغوص فيه النظر دون أن تجد قاعا ولا قرارا .

هل يجوز أن يدهشنا بعد ذلك أن أسمى مشاهد الطبيعة يتأملها السياح بعين متباينة ؟ ذلك أن كل امرئ يحمل معه وجهة نظره . وإن سحابة تغشى النفس لتغطى الأرض وتحيل لونها أكثر مما تفعل سحابة فوق الأفق . إنما المشهد فى المشاهد . لقد جربت ذلك .

- ١١ -

كنت أنظر كل شيء ، ولا أرى أى شيء . عينا كنت أهبط كالخبول متشبثا بقرون الحمم الخامد ، حتى قاع الفوهة . عينا اجتزت الشقوق العميقة التى كان ما يتصاعد منها من دخان ولهب زاحف يخفق

ويحرقني . عبثاً كنت أنا مل حقول الكبريت والملح المتبلور
الفسيفساء الشبيهة بحقول جلايد تلونها أسنة النارهذه . فقد لبثت جامداً
حيال الإعجاب مجردى حيال الخطر . كانت روحى فى موضع آخر
وعبثاً أردت أن أسترجمها .

وفى المساء هبطت عائداً إلى الصومعة . وصرفت أدلائى ، وعدت
أدراجى خلال كزوم بومبى . وأنفقت يوماً بطوله متجولاً فى الشوارع
المقفرة بتلك المدينة المطمورة . هذا القبر الذى فتح بعد ألف سنة
معرضاً للشمس من جديد شوارع وآثاره وفنونه خلفنى متبدل
الإحساس مثلاً خلفنى بركان فيزوف . فإن روح هذا الرماد كله قد ذرت
هذه عديد القرون ربح الله حتى أنها لم تعد تخاطب قلبى . كنت أظن
بقدمى رفات الناس هذه فى شوارع مدينتهم المندثرة بعدم المبالاة التى
أظن بها أكرام الأصداغ الفادغة التى يطرحها البحر إلى شطآنه . إن
الزمان بحر مهول يطفح ، كالبحر الآخر ، رميم البشر . والمرء لا يمكن
أن يبكى على كل شئ . فلكل امرئ آلامه ، ولكل عصر إشفافه
وحنانه ، وفى هذا كل الكفاية .

وإذ غادرت بومبى ، توغلت فى حلق جيبال كاستلامارى
وسورانتى الكثيفة الأحرش . وعشت هناك بضعة أيام ، منتقلا من
قرية إلى أخرى ، وتاركا لرعاة الماعز اقتيادى إلى أشهر البقاع فى جبالهم .
وحسبى الناس رساما يدرس المناظر ، لأنى كنت أدون من حين إلى حين
بعض المذكرات فى كراسة رسم صغيرة كان قد تركها لى صديقى . وما
كنت سوى روح ضالة تهيم هنا وهناك فى الريف الذى تفتى الأيام .
وكان شئ . ينقصنى ، حتى نفسى .

ولم أطق الاستمرار أطول من ذلك . فعندما انقضت أعياد الميلاذ وكذلك يوم رأس السنة هذا الذى جعل الناس منه عيداً كأنما ليغزوا الزمن ولا يستعطفوه بالأفراح والأكاليل مثل ضيف نظصارم يريدون لإلانة قلبه ، عجبت بالعودة إلى نابولى . عدت إليها ليلاً ومتردداً ، فيها بين الهمفة على رؤية جرازيللا ، والنزع لعلنى بأنى أن أهود أراها ، وتوقفت عشرين مرة ، وجلست على حواف القوارب عندما دنوت من مرجليتنا .

وقابلت بيوى على بعد خطوات من المنزل . فأطاق صبيحة غبطة عندما رأتى ، ووئب متعلقا برقبتى كأنه أخ صغير . واقفادنى تجاه قاربه ، وروى لى ما قد وقع منذ غيابى .

كل شىء فى البيت تغير أياًما تغيير . لجرازيللا لم يكن لها عمل إلا البكاء منذ رحلت . ولم تعد تختلف إلى المائدة لتناول الوجبات ولم تعد تشتغل فى صناعة العقيق . كانت تنفق أيامها جميعاً معتكفة فى غرفتها بمنعنة عن الرد إن دعاها أحد ، وتنفق ليالها جميعاً متجولة فى الشرفة . وكان يقال فى الجزيرة : إنها قد حننت أو إنها قد عشقت ، إلا أنه كان يعرف أن هذا غير صحيح .

قال الطفل : إن مأتى الشر كله أنهم أرادوا خطبتها إلى سيكو ، وأنها ليست تريد . لقد رأى بيدو كل شىء وسمع كل شىء . كان أبوى سيكو يقبل كل يوم طالبا رداً من جده وجدته . ولم يكف هذان عن تعذيب جرازيللا حتى تعرب آخر الأمر عن رضاها . إلا أنها لم تسكن نشاء أن تسمع حديثاً فى هذا الشأن ، كانت تقول إنه أحرى بها أن تلتبس الخلاص فى جنيف : وهذا عند السكاتوليك من أهل نابولى تعبير مرادف لهذا التعبير ، أحرى بى أن أرتد عن دى ، وهو تهديد

أنكى من التهديد بالانتحار : فهو بمثابة الانتحار الأبدى للروح .
لقد آيس أندريا وزوجته ، اللذان يعدان جرازىلا ، من مقاومتها
ومن ضياع آمالهما فى تزويجها فى وقت معا . جعلتا يتضرعان إليها بحق
شهرهما الأشيب ، ويتحدثان إليها عن شيخوختهما ، وعن نعمتهما
وعن مستقبل الطفلين . وعندئذ كان قلب جرازىلا يلين . فجعلت
تحمسن شيئا ما لقاء سيكو المسكين ، الذى يأتى من آن لأن ليجلس ذليلا
فى الليل على باب غرفة بنت عمته ، ويلعب الطفلين . وكان يقرئها
تحية الصباح ويودعها من خلال الباب ، واكنها كانت قلما ترد على
كلمة من كلماته . وكان ينصرف متبرما لكن مصعبا ، ثم يعود فى الغداة
على ما هو عليه . وقال يبدو « إن أختي مخطئة خطأ فادحا ، فإن سيكو
يحبها حبا جما ، وهو طيب جدا ، وهى سوف تكون سعيدة » . ثم
أضاف ، وأخيرا فقد استجابت لضراعة جدى وجدتي ولدهوع سيكو
فواربت الباب قليلا ، ومدت له يدها ، ففر فى إصبعها خاتما وودعت
بأنها سوف تدعهم يخطبونها غدا . ولكن من يدري ما إذا كانت
لا تواتبها غدا نزوة جديدة ؟ هى التى كانت بالغة الرقة والمرح ! رباه
لشد ما تغيرت ! املك ألا تعرفها ! ،

- ١٢ -

ونام يبينو فى القارب . أما وقد علت منه بما حدث فقد ولجت
البيت .

كان أندريا وزوجه وحدهما على السطح . واستقبلانى بمودة
وترحيب ، وغراني بتأنيب رقيق على غيابى الطويل . ورويا لى متاعبهما
وآمالهما فيما يتعلق بجرازىلا . قال لى أندريا : « لو قد كنت هنا ، أنتد

الذى تحبه جراز بلا كثيرا ولا تقول له كلا أبدا ، لعا وتتنا إيماء عون .
لشدما نحن مسروران لرؤيتك ثانية ! غدا سوف تعقد الخطبة ، وسوف
تخضرها ، إن وجودك جلب لنا السعادة دائما .

شعرت برعدة تمرى فى جميع أوصالى إزاء أقوال أولئك القوم
المساكين هذه . كان هاتف يهتف بى أنى مأتى بلائهم . وكنت أنحرق
وأرتعد لرؤية جراز بلا . وتصنعت أن أتحدث إلى أبوها بصوت عال .
وأن أروح وأجىء أمام بابها مثل امرئ لا يروم أن ينادى ولكن
يرغب أن يسمع . ولسكنها لبثت صماء بكاء ولم تظهر . فوالت غرقى
ورقدت . وأخيراً استولى على ذهنى ضرب من الهدوء الذى يولده
دائماً فى النفس المضطربة انقضاء الشك والاستيقان من أمر أى أمر ،
حتى لو كان المكرب . وقمت على سريرى مثل وقر موات ليس به حراك .
ولم ألبث أن ألقى ضئى أفكارى وأعفاني فى أضغاث الأحلام ثم فى
غناء السبات .

— ١٣ —

أرقت ونهبت قليلا مرتين أو ثلاث مرات فى تلك الليلة . كانت
ليلة من ليالى الشتاء هذه الأندر ولكن ألا شأمنها فى أية بقعة أخرى
فى الأقاليم الحارة وعلى شاطئ البحر . كانت ومضات البرق تندفق بلا
انقطاع خلال فروج مصراعى نافذتى كأنها تمحيقات عين من نار على
جدران غرقى . وكانت الريح تعوى كأنها تطيع من السكالب الجائعة .
وكانت العطبات الصماء التى يكيلها البحر المصطخب لساحل مارجلينا

تثير في الشاطئ . كله دويا شديدا كأنما قد ألفت فيه كتلا من
الصخور .

وكان باي يهتز ويصطلق من لفحات الريح . وخلت مرتين أو ثلاث
مرات أنه أنفتح ، وأنه انغلق من تلقاء نفسه ، وأنى سمعت صراخا
مختنقا ونشيجا بشريا يختلط بهزيم الرعد وأنين العاصفة . بل ظننت
ذات مرة أن أقوالا تتردد وأن اسمي ينطق به صوت واقع في شدة لعله
يستغيث طالبا نجدة ! فنهضت وقعدت في فراشي ، غير أني لم أعد أسمع
شيئا : فاعتقدت أن العاصفة والحمى ، والأحلام قد أغرقتني في الأوهام ،
واستغرقت ثانية في النوم .

وفي الصباح كانت العاصفة قد مهدت للشمس الساطعة . وأيقظني
نشيج حقيق وولولة يأس من الصياد الفقير وزوجته وهما يندبان على
صتة جرازيل . فإن المسكينة الصغيرة قد لاذت بالفرار أثناء الليل .
لقد استيقظت وعانقت الأطفال مشيرة إليهم بالترام السكوت . وتركت
فوق السرير كل الجمل من ثيابها ، وأقراطها ، وعقودها ، والنزوليسير
من النقود التي تملكها .

وكان الأب يمسك في يده بقصاصة ورق مشوبة ببضع قطرات من
الماء ، وجدت مثبتة بدبوس فوق السرير . وكان بها خمسة أسطر أوسمة .
رجاني حائرا أن أقرأها . ولم تكن تتضمن سوى تلك الكلمات المكتوبة
في ارتجاف أثناء نوبة الحمى ، والتي وجدت مشقة في قراءتها . لقد وعدت
شظطا ، إن هاتفا ينبثق بأن ذلك لا قبل لي به ، أقبل أندامكم أن
تصفحو عني . أفضل أن أصير راهبة . سروا عن سيكو وعن السيد .

سوف أصلى من أجله ومن أجل الطفلين ، أعطوهما كل ما امتلك .
وأعيدوا الخاتم إلى سيكو ...

لدى قراءة هذه الأسطر فاضت دموع الأسرة كلها من جديد .
ولم يسمع الطفلان الصغيران ، وكانا لا يزالان عاريين ، أن أختهما قد
رحلت إلى الأبد ، خلطا نواحيهما بنحيب الشيخين ، وطفقا يمدوان في
أرجاء المنزل منادين جرازيل !

- ١٤ -

سقطت الفصاصة من يدي . . وأردت أن ألتقطها ، فرأيت على
الأرض ، تحت بابي ، زهرة رمان كنت قد أعجبت بها يوم الأحد
السابق في شعر الفتاة ، والأيقونة الصغيرة التي كانت تحملها دائما والتي
علقتها منذ بضعة أشهر في ستارة سريري لإبان مرضي . ولم يعد يخالفني
الشك في أن بابي قد فتح فعلا ثم أغلق أثناء الليل ، وأن الكلمات
والشبهات المختنقة التي ظننت أنني سمعتها وحسبتها أنات الريح كانت وداع
الصبية المسكينة ونشيجها .

وكان موضع جاف ، على العتبة الخارجية لدخل غرفتي ، وسط
آثار المطر التي تلتطخ بقية الشرفة كلها ، يثبت أن الفتاة كانت قد جلست
هناك خلال العاصفة ، وأنها قد أنفقت ساعتها الأخيرة في الانين
والنحيب ، قابعة أو راكعة فوق هذا الحجر . والتقطت زهرة الرمان
والأيقونة ودسستهما في صدري .

ولقد تأثر القوم المساكين ، في غمار يأسهم ، لرؤيتي أبكى مثلهم .

فعلت كل ما في وسعي كيما أسرى عنهم . وتم الاتفاق على أنهم إذا
عثروا على ابنتهم فلن يعود أحد فيحدثها عن سيكو ، وكان سيكو ذاته ،
الذى ذهب يلبو ليحضره ، أول من ضحى بنفسه في سبيل سلام الدار ،
وعودة بنت عمته . ومهما كان مبلغ يأسه فقد كان جليلا أنه سعيد لأن
اسمه ورد في القصاص بركة ، وأنه وجد ضربا من السلاوة في الوداع
نفسه الذى سبب يأسه . قال : ولقد فسكت في على كل حال ، ثم
كشفف دمه ، وفي الحال اتفق فيما بيننا على أننا لن ننعم بلحظة من
الراحة قبل أن نقف على أثر الهاربة .

وانطلق الأب وسيكو على عجل ليستقوها في أدرة النساء المتعددة
في المدينة . وهرع يلبو والجدة إلى جميع أتراب جرازيل اللاتي يشتهن
في أن تكون أسرت لمن بشيء عن أفكارها وهرجها . أما أنا ، فلأني
غريب ، تكلمت بزيارة الأرصمة ومرافق نابولي ومراسي البلدة لكي
أسأل رجال الشرطة ، وقباطنة السفن ، والنوتية ، ولكي أعرف
ما إذا كان أحدهم قد شاهد فتاة روسيدية تخرج من المدينة وتبحر
في الصباح .

وانقضى الضحى في بحوث راحت سدى . وعدنا جميعا إلى الدار
صامتين مكروين لكي نرى لبعضنا بعضا مساعينا ، ولكي نتسار
من جديد وما من أحدينا خلا الطفلة ، وافته القدرة على أن يضع لقمة في
فمه . وجلس أندريا وزوجه كسرى الخاطر على عتبة غرفة جرازيل .
وعاد يلبو وسيكو إلى التجول بغير أمل في الشوارع وفي السكائن ،
التي تفتح ليلا في نابولي للطلبة والخماس البركة .

خرجت وحدى بعدى ، وسلكت فى حزن وبالمصدفة الطريق
المفضية إلى كهف اليوزيليب . اجتزت الكهف ، ومضيت حتى شاطئ
البحر الذى تستجم فيه جزيرة نيزيدا الصغيرة .

وعلى شاطئ البحر تطلعت عيناى إلى جزيرة بروسيدا التى ترى
من هناك بيضاء ناصعة كأنها منقط سلحفاة فوق زرقة الأمواج . وكان
من الطبيعى أن تتطلع أفكارى إلى تلك الجزيرة وإلى أيام الأعياد هذه
التي أنفقها فيها مع جرازىلا . وكان يقودنى إليها الإلهام . تذكرت أن
الفتاة كان لها هناك صديقة تناهزها فى العمر ، ابنة رجل فقير من
سكان الأكواخ المجاورة ، وأن تلك الفتاة كانت ترتدى زياً خاصاً
يختلف عن زى أترابها ، وأنى ذات يوم سألتها عن دوافع هذا
الاختلاف فى زىها ، فأجابتنى بأنها راهبة ، ولو أنها نقيم حرة لدى
أبويها فى حالة وسط بين حياة الأديرة وحياة الأسرة . وقد أرتقى
كنيسة ديرها . وكان ثمة كثير منها فى الجزيرة ، وكذلك فى إيسكيا
وفى قرى ريف نابولى .

فطارت لى فكرة أن جرازىلا ، وقد شامت أن تنذر نفسها لله ،
ربما مضت لتبوح بسرها إلى هذه الصديقة وتسألها أن تفتح لها أبواب
ديرها . ولم أدع لى نفسى متسعا من الوقت لأفكر ، وكنت سائراً فعلاً
بخطى حثيثة على طريق بوزوليس ، أقرب مدينة إلى بروسيدا توجد
بها قوارب .

بلغت بوزوايس فى أقل من ساعة ، وعدوت إلى المرفأ عدوا ،
ودفعت أجرا مضاعفا لمجدفين لسكى أحثهما على طرحى فى بروسيدا
رغم هياج البحر وانسدال الليل ووضعنا قاربهما فوق الموج ، وأمسكت
معهما بزوج من المجاديف ، وجاوزنا رأس مسينا بعناء . وبعد ساعتين
بلغت الجزيرة وجعلت أتساق وحيدا — لاهثا مبهور الانفاس ،
مرتعد الاوصال ، متخيظا فى الظلمات ، متلقيا اطومات ريح الشتاء —
أتساق مدارج المطلع الطويل الذى يفضى إلى كوخ أندريا .

- ١٦ -

قلت لنفسى : إذا كانت جرازيل فى الجزيرة ، فلا بد أن تسكون
أنت هنا أولا ، مدفوعة بالغريزة الطبيعية التى تسوق الطير إلى عشه
والطفل نحو بيت أبيه . وإذا كانت لم تعد فيها فإن بعض الآثار مستثبني
بأنها قد مرت بها . ولعل هذه الآثار أن تقودنى إلى حيث توجد . وإذا
لم أجدها أو أجد آثارا لها فقد قضى الأمر ، فإن أبواب قبر حى
تسكون قد أغلقت على شبابها إلى الأبد .

وطئت آخر درجة فى المطلع ، وأنا نهب لهذا الشك المروع .
وكنيت أعرف فى أى شق بالصخر قد خبأت الأم العجوز عند رحيلها
مفتاح المنزل . فأزحت اللبلاب جانبا ودمست فيه يدى . وجعلت
أصابعى تتحسسها بحثا عن المفتاح ، وقله تقلصت خشية أن تحس فيه برودة
الحديد التى ما كانت لتدع لى أى أمل . . .

لم يكن المفتاح هناك . فأطلقت صيحة فرح محتقة ودخلت إلى الغناء

في خطوات صامتة . وكان الباب والنوافذ موصدة ، وكان بصيص خافت يتسلل من شقوق النافذة وينسدل على أوراق شجرة التين من مصباح موقد في المسكن . من في استطاعته أن يجد المفتاح ، ويفتح الباب ، ويضئ المصباح إن لم يكن ابنة المنزل ؟ لم يخالجنى الشك في أن جراز يلا على قيد خطوتين منى ، وجثوث على ركبتى فوق آخر درجات السلم لأشكر الملك الذى اقتادنى إليها .

- ١٧ -

ما من صوت كان يصدر من الدار . وأصقت أذنى بالعتبة ، وخلفت أذنى أسمع صوت تنفس واهيا وما يشبه النسيج داخل الغرفة الثانية . فبرزت الباب هزاً رقيقاً كما لو كان قد ارتج فقط فوق مفاصله بفعل الريح ، بقصد استرعاء انتباه جراز يلا رويداً رويداً ، وحتى لا يقتلها الرنين المفاجئ وغير المتوقع لصوت آدى عندما يناديها . وتوقف التنفس . وعندئذ ناديت جراز يلا بصوت خفيض وبأهدأ وأرق لهجة أمكنتنى أن أجدها فى قلبى . . فجاءتني من داخل الدار صرخة واهنة .

فناديت من جديد ، مناشداً إياها أن تفتح لصديقها ، لأخيها الذى جاء وحيداً ، فى الليل ، خلال العاصفة ، يرشده ملكه الطيب — جاء يبحث عنها ، ويكتشف مكانها ، وينزعها من لجة يأسها ، ويحمل لها صفح أسرتها ، وصفحه ، ويعيدها إلى واجهها ، إلى معادتها ، إلى جدتها المسكينة ، وإلى عزيزها الصغيرين !

فصاحت صيحة قوية : « رباه ! هو ذا اسمي ! هو ذا صوته ! »
 فناديتها نداء أرق « جرازيلينا » ، اسم التدليل هذا الذي كنت
 أدعوها به أحيانا عندما نخرج سويا فقالت « أوه ! هو ذا لعمري !
 لم أخطئ . في ظني ! رباه ! هو ذا ! » .

وسمعتها تتحامل لتنهض فوق الأوراق الجافة التي تحششني لدى كل
 حركة من حركاتها ، وتخطو خطوة اسكى تقبل فتفتح لي ، ثم تسقط ثانية
 من الإعياء ، أو من الانفعال ، دون أن توانها القدرة على التقدم .

- ١٨ -

ولم أعد أتردد ، فدفعت الباب القديم بكتفي بكل القوة التي أمدهني
 بها جزعى وقلقي ، فأنهار المزلاج وانفصل تحت ضغط الجهد ،
 وزاندفعت إلى داخل الدار .

وكان المصباح الصغير الذي أشعلته جرازيل من جديد أمام صورة
 العذراء ينيره ببصيص ضئيل . وهرعت إلى داخل الغرفة الثانية حيث
 سمعت صوتها وسقطتها ، وحيث اعتقدت أنها مغشى عليها . ولكنها
 لم تكن كذلك ، كلما هنالك أن ضعفها خذل جهدها ، فقد سقطت ثانية
 فوق كومة الخننج الجاف التي اتخذت منها سريرا ، وعقدت يديها عندما
 أبصرتني . وكانت عيناها اللتان أذكنتهما الحى ، وقتحتهما الدهشة ،
 وأضناها الموى ، تتألقان مستقرتين كأنهما نجمتان يهبط ضياؤهما من
 السماء ، وتخالهما تمنعان فيك للنظر .

وسقط رأبها ، الذى حاولت أن ترفعه ، سقط ثانية على الأوراق بفعل الضعف ، وقد انقلب إلى الخلف ، وكأنما قد تحطم منها العنق . وكانت شاحبة شحوب للزعر الأخير ، فيما خلا تفاحتى الوجنتين المخضبتين بورق نضير . وكانت بشرتها المرمرية الجميلة مشوبة بعروق من الدموع والغبار الذى علق بها . وكان ثوبها الأسود يختلط باللون الأسمر للأوراق المنشورة على الأرض والى اضطجعت عليها . وكانت قدمها الناصعتان كالمرمر تتجاوزان بطولهما كله كومة الخلنج وتمددان فوق الحجر . وكانت الرعدة تسرى فى جميع أوصالها وتصطك منها أسنانها كأنها صناعات فى يد صبي . وكانت عصاة الرأس الجراء التى اعتادت أن تلغ فيها جذائل شعرها الجميل الطويلة الفاحمة — كانت ممسكوكة ومتهدلة كأنها قناع ينسدل فوق جبينها حتى ضفاف عينها ، وكان جلياً أنها قد استخدمتها لتدفن بحياها ودموعها فى الظلام وكأنها تدفن أسلفاً فى سكون السكفن ، وأنها لم ترفعه ثانية إلا عندما سمعت صوتى وقعدت كى تقبل فتفتح لى .

— ٩٩ —

ارتيمت جانبا على ركبتى بجوار « الخلنج » ، وتناولت يديها المشائجتين فى يدي ، ورفعتها إلى شفتى لىكى أدفئها بأفهامى ، فتساقطت عليهما قطرات من عبراتى . وفهمت من ضغط أصابعها المرتجفة أنها قد شعرت بمطر القلب هذا وأنها تشكرنى عليه ، وخلعت معطف البحارة وطرحته فوق قدميها الحافيتين . ودسستهما فى لفافات الصوف .

وتركتني أعمل متابعة لإيأى فقط بعينها. وقد ارتسم فيهما تعبير عن
 «النشوة السعيدة» ، لكن دون أن تستطيع أن تؤدى لنفسها أية حركة ،
 شأنها شأن طفل يستسلم للتقييد واللف في مهد . ثم رميت حزمتين
 أو ثلاث حزمات من الخلدج في موقد الغرفة الأولى لتدفئة الجو قليلا .
 وأشعلته من شعلة المصباح ، وعدت أجلس على الأرض بجوار فراش
 الأوراق .

قالت لي في صوت خفيض ، ولهجة رقيقة ، متزنة ورتيبة ، كما لو
 أن صدرها قد فقد في وقت واحد كل اختلاج وكل نغم ولم يعد يحتفظ
 إلا بالحن واحد في الصوت : « كم أحس أنى في حال عليية . عبثا حاولت
 أن أخفي الأمر عن نفسي . عبثا حاولت أن أخفيه دائماً عنك ، لقد
 أرادوا أن يقدموا لي خطيباً ، إنما أنت خطيب روحي ؛ إن أهب نفسي
 لشخص غيرك على ظهر الأرض ؛ لأنى وهبتك نفسي سرا ؛ إنما أنت على
 الأرض ، وإما الله في السماء . . . ذلك هو النذر الذي نذرتة أول
 يوم فهمت فيه أن قلبي مريض بك . أعرف جيداً أنى لست إلا فتاة
 فقيرة غير جديرة بأن تمس قدميك وحدهما بفسكرها . لذلك لم أسألك
 قط أن تحبني . والآن ، احتقرني ، اسخر مني ، اسحقني بقدميك ،
 اهزأ بي ، إن شئت ، كما تهزأ بمجنونة تتخيل نفسها في أسماها ملذكة .
 اجعل منى أضحوكة للعالمين . سأقول لهم : إنى أحبه . ولو كنتم في
 مكانى لفعلتم مثلبا فعلت ، إنما كنتم أحببتموه ولما تمتم . »

— ٢٠ —

عظمت غاضا عني ، لا أجروأن أرفعهما لإليها ، خشية أن يعبر بصري

أكثر مما ينبغي ، أو ألا يعبر بما يكفي عن مثل هذه النشوة . ومع ذلك
قلدي هذه الكلمات ، رفعت جيني المعتمد على يدي ، وغمضت ببعض
الانفاظ .

قوضت أصابعها على شفتي . « دعني أقل كل شيء : إلى الآن
مسرورة ، لا يخالجنى أى شك ، فقد اتضحت إرادة الله . اسمعني :

« أمس عندما قررت من البيت بعد أن أنفقت الليل بطوله في المجادلة
والبكاء على بابك ، عندما وصلت إلى هنا خلال العاصفة ، إنما وصلت
معتقدة أني لن أراك أبداً ، أشبه بميمية تسير من نفسها إلى قبرها . كنت
قد اعتزمت أن أترهب غداً حالما يطلع النهار . لما وصلت إلى الجزيرة
في الليل ، وذعبت أطرق باب الدير ، كان الوقت متأخراً فوجدت
الباب مغلقاً ، ورفضوا أن يفتحوا لي ، لحضرت إلى هنا كي أنفق الليل ،
وأقبل جدران بيت أبي قبل أن أدخل بيت الله وقبر قاي . واستكسبت
طفلاً كتباً إلى إحدى صديقاتي كما تحضر فتأخذني غداً . وأخذت
المفتاح ، وأضأت المصباح أمام صورة العذراء . وركعت على ركبتي
ونذرت نذراً ، نذراً أخيراً ، نذراً الأمل حتى في هوة اليأس . لأنك
ستعرف ، إن أحببت يوماً ، أنه يبقى دائماً في أعماق الروح قبس أخير
من النار ، حتى لو ظن الحب أن كل شيء قد انطفأ . قالت لها : « أيتها
الحامية القديسة ، ابعثي لي أمانة على صدق إلهامي تؤكد لي أن الحب
لا يخدعني ، وأنني أقدم حقيقة إلى الله حياة لا يجوز أن يملكها سواه . »

« هالك آخر ليلة أقضيها بين الأحياء . لا أحد يعرف أين أنفقها . »

لعلهم أن يجيشوا غدا ليجشوا عني هنا وقد غدوت في غير هذا المكان.
فإن كانت الصدقة التي أرسلت أبلغها هي التي تأتي أولا فسوف يكون
ذلك أمانة على أني يجب أن أنفذ نيتي ، وسأتيها إلى الدير إلى الأبد.

و أما إن كان هو الذي يظهر قبلها ، هو الذي يحضر ، يرشده تمسكي
ليستشغني ويوقفي على حافة حياتي الأخرى . . أوه ! عندئذ يكون
ذلك أمانة على أنك لا تريدني ، وأنني يجب أن أعود معه كي
أهواه بقية أيامي !

وأضفت : «مري أن يكون هو ! ليت هذه المعجزة فوق معجزاتك ،
إن كانت هذه مشيتك ومشية الله ، وكى أحصل عليها فاني أهيك
هبة ، الهبة الوحيدة التي في مقدوري أن أقدمها ، أنا التي لا أملك شيئا .
هالك شعري ، شعري المنكود الطويل الذي يحبه والذي طالمنا فكه
ضاحكا كي يراء يتموج على كتفي في الهواء ، خذيه ، إني أهيك إياه ،
وسوف أقصه بنفسى لكي أثبت لك أني لست أبقى على شيء . وأن
رأسى يتصاع سلفا للعقص الذي قد يقصه عندما انفصل عن الدنيا .

وعلى أثر هذه الكلمات ، أزاحت بيدها اليسرى المندبل الحريري
الذي يعصب رأسها ، وإذ تناولت بالأخرى اللغة الطويلة لشعرها
المقصوس ، والمالتى بجوارها على سرير الأوراق ، أرتقى إياه وهي
تدس طه . ثم استأنفت بصوت أقوى وبلمحة غبطة صادقة : « لقد أنت
المعذراء بالمعجزة ! لقد أرسلتك ! سأذهب أني نشاء . إن شعري لها ،
أما حياتي فلك ! » .

فارتفعت على جدائل شعرها الجميل الفاحم المقصوفة ، التي ظلت في يدي كأنها غصن موات منزع من شجرة . وغمرتها بقبالات صامئة وضغطتها إلى صدري ، ورويتها بدموعي كأنها جزء منها نفسها أدفنته في الأرض وهو رميم . ثم رفعت عيني إليها ثانية ، فأبصرت رأسها الغاتن الذي رفعت مسمته أجرداً تماماً ، لكن كأنما زائنه تضحيتها وجهته ، يتألق غبطة وحبا وسط الشفق الفاحمة وغير المتساوية من شعرها المقصوص أو الأخرى الممزق بالمقص . بدت لي أشبه بتمثال الشباب المجدوع الذي يزيد جدع الزمان نفسه من فتنته وجماله إذ يضيف الإشفاق إلى الإعجاب . إن اعتسافها هذا لنفسها ، وانتحار جمالها هذا في سبيل حي ، كالا لقلبي ضربة زعنزع ثقلها كياني بأسره وطرحته جبهة في الأرض تحت قدميها . لقد أحسست ماذا يعني الحب وأخذت هذا الإحساس على أنه الحب !

- ٢١ -

اعتقدت أني كنت أعبدها كما يليق أن تعبد مثل هذه البراءة ، وهذا الحسن ، وهذا الحب . وقلت لها ذلك باللهجة الصادقة هذه التي يبعثها الانفعال ، وبالوجد المتصل هذا الذي تبعته الوحشة والليل ، واليأس ، والدموع : وصدقت به ، لأنها كانت في حاجة إلى التصديق به كي تعيش ، ولأنها كانت تملك في نفسها قدرا من العاطفة يسكني لتغطية النقص في ألف قلب آخر .

انقضى الليل بطوله في سمر آمن ، لكن ساذج وطاهر ، سمر مخلوقين

يكشفان كشفاً بريئاً عن حناهما ، ويريدان لو طال الليل وراء
 المسكون إلى الأبد حتى لا يجرى شيء غريب عنهما فيعترض ما بين الفم
 والقلب . كانت عفتها وتحفظي الخجلان ، وتحنان روحينا نفسه تبعد
 عنا كل خطر آخر . كان حجاب دموعنا منسدلاً علينا . ما من شيء
 يبعد عن الشهوة مثلها يبعد الحنان . ولو قد أسى استغلال مثل هذه
 الصلة الخيمة لكان تدنيساً لروحين .

استيقظت يديها في يدي ، وشعرت بالحياة تدب فيها من جديد .
 وذهبت لأحضر لها بعض الماء العذب كي تشرب من كفى وتمسح
 جبينها وجفونها . وأرثت النار بأن ألقيت فيها ببعض الغصون ، ثم
 عدت أجلس فوق الحجر بجوار حومة الريحان التي يستريح عليها رأسها
 لكي أسمع وأسمع ونجوى حبها العذبة ؛ كيف تتولد في نفسها على غير وعي
 منها ، تحت مظهر الصداقة الأخوية الخالصة الرقيقة ، وكيف فرغت في أول
 الأمر ثم اطمأنت ، وبأى أمانة عرفت آخر الأمر أنها تحبني ؛ وكل علامة إشار
 خفيفة خستني بهادون وعي مني ، وأى يوم اعتقدت أن سرها انكشف ،
 وأى يوم ظنت أنها أدركت أني أباد لها الشعور ، والسويعات ،
 والحركات والبساتين ، والكلمات منطلقها ومحبستها ، وإفصاحات وجهينا
 أو مكفوناتهما غير الإرادية خلال هذه الشهور الستة . لقد عت
 ذاكرتها كل شيء ، فذكرتها بكل شيء ، كعشب جبال الجنوب الذي
 أضرمت فيه الريح النار خلال الصيف فيحتفظ بأثر الحريق في كل مكان
 حسه اللمب .

وكانت تضيق لنجواها تلك الخرافات العاطفية الغامضة التي تضيق على آتفه الظروف شيئاً قيمة ومعنى ، كانت تنضو أمامي ، إن جاز القول ، الحجب التي تغشى روحها حجاباً وراء حجاب . كانت تنهدى كأنما أمام الله ، في كامل معشري سذاجتها وطفولتها ، واستسلامها ، ليس الروح إلا لحظة واحدة في الحياة من تلك الملاحظات التي تنسكب فيها بجماعها في روح أخرى ، بذلك الحمس الذي لا يغيض من شعاع لا تسكنى اندفاقها اللاهج ، وينتهي بها الأمر إلى أن تنالج في صوت متهدج ومهوش كقبيلات طفل يأخذه الكرى .

ولم يخامرني ملل من الإنصات ، والانتحاب ، والارتعاد ، طويلاً بعد طور . ومع أن قلبي ، الذي لم يزل لشبابه طائشاً أخضر العود ، لم يكن ناضجاً ولا خصباً بما يكفي ليولد من تلقاء ذاته مثل هذه الانفعالات الملتهبة والعلوية ، فإن انفعالاتها تلك إذ وقعت في قلبي كان لها أثر بالغ من جدته ومن عذوبته أنى وقد شعرت بها ظننت أنى أجبرها . ياله من خطأ ! كنت أنا الثلج وكانت هي النار . وكنت إذ أعكسها أظن أنى أولدها ، ومع ذلك فإن هذا الإشعاع إذ يرتد من أحدنا إلى الآخر ، كان يبدو كآية يخص الاثنين وأنه يحيطنا بجو شهور واحد .

كذلك انقضت تلك الليلة الطويلة من ليالى الشتاء . وما استغرقت تلك الليلة عندها وعندى إلا ما يستغرقه التهد الأول الذي يقـول « إني أحب » . ولقد بدا لنا . عندما طلع النهار ، أنه جاء يقطع هذه الكلمة إلى لم تكذباً .

ومع ذلك فقد كانت الشمس عالية فوق الأفق عندما تسالت أشعتها
بين المصاريح الموصدة فكسفت بصيصر المصباح . وما إن فتحت الباب .
حتى رأيت أسرة الصياد بأسرها تصعد الدرج جريا .

إن الراهبة البروسيدية الشابة ، صديقة جرازيللا ، التي بعثت إليها
برسالتها البارحة وباحت لها بنيتها في دخول الدير في اليوم التالي ،
اشتبعت في يأس قلبها ، فأوفدت في الليل أحد إخوتها إلى نابولي لينبأ
أهل جرازيللا قرارها . ولذا علموا بالعثور على ابنتهم ، وصلوا
على عجل ، فرحين أيما فرح . نادمين أيما ندم ، ليوقفوها على حافة
يأسها ، وليعيدوها معهم حرة ومصفوحا عنها .

جئت الجدة على ركبتيها بالقرب من السرير دافعة بذراعيها الاثنين
الطفلين الصغيرين اللذين اصطحبتهما لاستعطاف جرازيللا ، ومحتمة
بجسديهما كأنما تحتضن بذرعه يقبها ملامة حفيدتها . وارتضى الطفلان
في ذراعي شقيقتيهما في صراخ وعويل شديدين . ولذا نهضت
جرازيللا كي تداعبهما وتعاتق جدتها ، سقط المنديل الذي يمسبه
رأسها ، وأبدى رأسها المجرد من الشعر . وعلى أثر رؤية هذا العدوان على
جمالها ، الذي فهموا معناه تمام الفهم ، ارتعدت أوصالهم . وانطلق
الذئبيج من جديد في المنزل . وجعلت الراهبة التي دخلت . تهدى
الجميع وتواسيهم . وجمعت الخصل المنزوعة من جبين جرازيللا ،
ومست بها صورة العذراء طاوية لإياها في منديل من الحرير الأبيض .
ثم وضعتها ثانية في منزر الجدة . قائلة لها : « احتفظي بها . كي تريحها »

إليها من آن لان . في نعيانها أو في بأسائها . ولكي تذكرها . عندما
تصبح لمن تهواه . أن بوا كير اختلاجات قلبها ينبغي أن تكون دائماً لله
كما كانت له بوا كير حسناتها الماثلة في هذه الخصلات .

- ٢٤ -

وفي المساء عدنا جميعاً إلى نابولي . فكانت الغيرة التي أبدتها
في سبيل العشور على جرازيل ولناقذا في هذا الظرف قد ضاعت
من حب المرأة العجوز والصيدا لباي . ومامن أحد منهما كان يشق به في طبيعة
اهتمامي بأمرها وفي عاطفتها نحوى . وكانوا ينسبون نفورها كله إلى
بشاعة سيكو . وعقدوا الأمل على أن يقهر العقل والزمن هذا النفور .
ووعدوا جرازيل ألا يلحوا عليها قط في شأن الزواج . حتى سيكو
نفسه توسل إلى أبيه ألا يتحدث في هذا الأمر . وكان يسأل ابنة عمته ،
بمخشوعه ، وبسلوكه ، وبظفراته ، أن تغفر له أنه كان سبب شقاها .
وعاد العفو إلى المنزل .

- ٢٥ -

وما من شيء عاد يلقي أى ظل على محيا جرازيل أو على سعادتي ،
الهم إلا فكرة أن هذه السعادة سوف تنقطع عاجلاً أو آجلاً بهودتي
إلى بلادى . وعندما كان أحد يلفظ اسم فرنسا كانت الفتاة المسكينة
يقولها الشحوب كأنها قد رأت شبح الموت . وذات يوم ، لدى دخولي
غرفتي ، وجدت جميع ملابس المدينة ممزقة لإرباً ولفقاء على أرضية

الغرفة خرقا . وقالت لى جرازيل . جائية على ركبتيها . ورافعة نحوى
عماها المتغير وأنا التى اقررت هذه الفعلة أوه ، بربك لاتعنفنى . فـ بكل
ما يذكرنى بأئك لابد تارك يوما ثياب النوتية هذه يجعلنى فى أسوأ
حال . . . يخيل لى أنك سقطرح قلبك الحالى لمتخذ قلبا آخر عندما
ترتدى ثياب الماضى ١٠٠ .

بإستثناء هذه العواصف الهينة التى لم تسكن تعصف إلا بسبب
وقدة خناها . والتى كانت تسكن عندما تنسكب بضغ عبرات من
عيوننا . انقضت ثلاثة أشهر على هذا النحو فى غبطة خيالية . كانت
أقل حقيقة واقعية تمسنا . قينة بأن تحطمها تحطيا — كان فردوسنا قائما
فوق سحابة .

كذلك عرفت الحب . من دمة تفرق فى مقلة طفلة .

- ٢٦ -

ما كان أسعدنا معا عندما يتيمنا لنا أن نلقى تماما أن ثمة دنيا أخرى
قائمة فيما يخرج عنا ، دنيا أخرى غير هذا البيت الصغير القائم على سفح
البوزيليب ، تلك الشرفة المشمسة ، تلك الغرفة الصغيرة التى كنا نشغل
فيها لاهيين نصف النهار ، ذلك القارب الرائد فى سريره الرمال على
الشاطئ . ، وذلك البحر الجميل الذى كانت أنسامه الندية الرتيبة الممطرة .
تحمل لنا طراءته وأنغام مياهه .

لكن وآسفاه . . . كانت ثمة أوقات تعابنا فيها أن نفكر أن الدنيا ،

لا تنتهى هنالك ، وأن يوما ما سوف يشرق فلا يجدنا مجتمعي الشمس
تحت شعاع واحد للقمر أو للشمس . لأنى مخطيء . أسكتة لومى جفاف
قلبي عندئذ إذا قيس بما شعر به منذئذ . الحق ، أنى بدأت أحب
جزرايلا ألف مرة أكثر مما أقررت فى نفسى . ولو كنت لم أحبها
إلى هذا الحد ، لما كان الأثر الذى خلفته فى نفسى طيلة عمرى عميقا هذا
العمق ، أليما هذا الألم ، ولما أصبحت ذكراها ملتحمة فى مقرونة
بمثل هذه العذوبة ، مشوبة بمثل هذا الحزن . ولما أصبحت صورتها فى
ذاكرتى ماثلة هذا المثل وناضرة هذه النظرة . ومع أن قلبي
كان عندئذ مقدوداً من رمل فإن زهرة الحب كانت قد تأثت
فيه أكثر من موسم كاتائل الزنبق بالساحل الصغير على شاطئ
جزيرة إيسكيا .

- ٢٧ -

وأى عين مهما حرمت من الشعاع ، وأى قلب مهما خلق جامداً كان
لا يبعث ؟ كأن يبدو أن جمالها يزداد من المساء إلى الصباح . كأن نموها قد
توقف ، بيد أنها كانت تكتمل فى كل مفاتها . مفاتن طفلة بالأمس
بمفاتن فتاة متفجرة الأنوثة اليوم . كانت أعطافها المشوقة تتطور
فى لمح البصر ، وكان قوامها يلتف دون أن يفقد من تأوده شيئا . وما
كانت قدماها الحافيتان أجملتان تطلان الأرض التى تخطر عليهما بمثل
هذه الخفة .

وعاد شعرها بنيت بالعصارة القوية الأنيثة ، عصارة الأعشاب
البحرية النامية فى كنف أمواج الربيع الندية . وكثيراً ما تسليت

بقياس نموه بأن أبسطه ملفوفا حول إصبعي فوق حواشي د بلوزتها ،
الخضراء الموشاة . وابتضت بشرتها وتخطبت في الوقت نفسه
بالأصباغ التي كانت مساحيق العقيق الوردية تغمر بها كل يوم اطراف
أصابعها . وانسمت عيناها وجعلتا ازدادان ففتحا من يوم إلى يوم كأنما
لنعتنقا أفقا قد لاح لها على حين فجأة .

وكان لها معنى دون قصد ندوات خمر واستحياء في مكنتاتها
و نظرانها وحركاتها ما لم يكن لها به عهد من قبل . ولقد شعرت بذلك ،
وكثيرا ما كنت أنا نفسي بقرينها صامتا أيما صمت مرعبا أيما ارتعاد . حتى
لثقلنا شخصين ارتكبا المعصية ، وما نحن سوى طفلين في أوج
السعادة .

ومع ذلك فلهذا زمن كانت مسحة من الحزن تستخفى أو تبدى
خلف هذه السعادة . ولم تكن نعرف لماذا — ولكنها ، هي ، كانت
تعرف المصير . كان هذا هو الشعور بتقصير الوقت الذي بقي لنا لنقضيه
معا .

— ٢٨ —

وكثيرا ما كانت جرازيللا ، بدلا من أن تستأنف عملها بمرح
عقب أن تتولى لباس أخويها الصغيرين وتزينهما — كانت تظل جالسة
عند أسفل دعامة الشرفة ، في الأوراق العريضة لشجرة تين تنض
من أسفل حتى تصل إلى ما فوق حافة الدعامة . وكانت تستقر هناك بلا
حرك ، زائغة البصر ، منفتحة أنصاف أيام بتمامها . وعندما كانت

جدها تسألها عما إذا كانت مريضة كانت تجيب أنها خالية من العمل ولا نملأ
قد انقلب الملل قبل أن تزاوِل العمل . ولم تسكن تحب أن يستجوبها أحد عنده
كانت تشيح بوجهها عن كل الناس فيما هداى . أما أنا فكانت تحدق فى
مليا دون أن تقول لى شيئا . وفى بعض الأحيان كانت شفتاها تنفر جان
كانتا قد تكلمت ، ولسكنها كانت تتمم بالفاظ لا يفهمها أحد من الناس .
وكانت ترى عضونا يسيرة ، بيضاء طورا . ووردية طورا . تسرى
فى أديم خديها وترقرقه مثل صفحة الماء الساجى النعسان تخنأج تأثرا ، عندما
كنت أجلس بجوارها ، وأمسك بيدها . وأدغدغ برفق الأهداب
الطويلة لعينيهما المغمضتين بكنف اليراع أو بطرف عود ريحان . عنده
كانت تنسى كل شىء ، وتنطلق فى الضحك وفى الحديث كسابق الألوان
إلا أنها كانت تبدو حزينة أسيفة عقب أن تمرح وتمرح معى .

كنت أقول لها أحيانا دجرازيلا ، ماذا تشاهدين إذن كذلك ،
هناك فوق البحر خلال ساعات بطولها ؟ هل ترين هناك شيئا لا تراها
نحن ؟ ، فكانت تجيبنى ، أرى هناك فرنسا وراء جبال من الثلج .
وكنت أضيف ، وماذا ترين إذن من جميل فى فرنسا ؟ ، وكانت ترد ، أرى
فيها شخصا يشبهك ، شخصا يسير ، ويسير . ويسير على درب طويل
أبيض لا ينتهى . يسير دون أن يلتفت إلى الوراء . يسير دائما . دائما
إلى الأمام ، وانتظر ساعات بطولها ، يداعبنى الأمل دائما أن يلتفت كى
يمود أدرجه متأثرا خطواته . ولسكنه لا يلتفت . ثم تخفى وجهها فى
حجرها . وعينا كسنت أناديهما بأحب أسماء التبديل لهما . فما كانت
ترفع جبينها الوضاء .

عندئذ كنت أعود إلى غرفتي حزينا أنا نفسي أيا حزن . وكنت
أحاول دائما أن أطالع كي أتلهي . ولكنني كنت دائما أرى صورتها
تأتمت بين عيني وبين الصفحة . وكان يخيل لي أن الكلمات تتخذ صوتا وأنها
تتهد مثلما يتهد قلبا نا وكثيرا ما آل بي الأمر أن أبكي وحدي ولكنني
كنت أشعر بالحجل من السوداء التي تلتا بي ولم أكن أقول لجرأزيلا قط أنني
قد بكيت . وشدما كنت مخطئا ، فرب دمة مني تضي عليها خير أجر بلا .

- ٢٩ -

إني لأنذكر المنظر الذي أضنى قلبها أشد الضنى والذي لم تبرأ منه
قط براء تاما .

كانت قد ارتبطت منذ عهد بعيد بلحمة الصداقة مع فنانين أو
ثلاث فتيات يناهزنها في العمر . وكانت أولئك الفتيات يقطن أحد
البيوت الصغيرة في البساتين . وكن يكوين ويرتقن أبواب دار تعليم
الفتيات الفرنسيات . وكان الملك مورا قد أنشأ تلك الدار في نابولي
لبنات وزرائه وقواده . وكثيرا ما كانت الفتيات البروسديات أولئك
يتحدثن من أسفل ، وهن يؤدين عملن ، مع جرازيل التي تطل عليهن
من فوق سياج الشرفة ، وكن يرينها الجميل من أشغال الدنلا
والمسوجات الحربية ، والقبعات ، والأحذية ، والأشرطة ،
والأوشحة التي يجلبنها أو يوردها لطلبات هذا الدير . وكانت
صياحات دهش وإعجاب لا تنتهي .

وأحيانا كانت العلامات الصغيرة يجنن لاصطحاب جرازيل إلى
 القديس أو إلى صلوات الستار الموسيقية (١) في كنيسة بوزيليب الصغيرة
 وكنت أنطلق للملاقاتن عندما يأفل النهار ، تنبهي دقات النافوس المتوالية
 إلى أن القديس يهم بمنح البركة . وكنا نعود ونحن نرح ونمزح على
 ساحل البحر ، بأن نتقدم في إثر الموجة عندما تنحسر ، وأن نفر أمام
 الموجة عندما تنتشر ، وقد اكتسبت أقدامنا بوبر من الزيت ، رباها
 لكم كانت جرازيل جميلة وقتئذ ، عندما ترتعد مخافة أن تبسل نعلها
 الجليدين الموشين برقائق من الذهب ، فتعدو نحوى فاتحة ذراعهما إلى
 الأمام كأنما انحنى فوق قلبي من الموج المتلف إلى اعتناقها أو على
 الأقل إلى لعق قدمها .

- ٣٠ -

لاحظت منذ مدة أنها كانت تخفي عني شيئا من أفكارها لسمعه
 أدريه . وكان لها أحاديث سرية مع صديقاتها الفتيات العاملات . كان
 الأمر بمثابة مؤامرة صغيرة غير مسموح بقبولها فيها .

وذات مساء ، كنت أقرأ في غرفتي ، على بصيص مصباح صغير
 من الفخار . وكان بابي المطل على الشرفة مفتوحا ليتمسك منه نسيم
 البحر ، فسمعت ضجة ، همسات مستطيلة بين الفتيات ، وضجكات
 مكبوتة ، ثم أنات مكتومة ، وألفاظ امتعاض ، ثم انفجارات جديدة
 لأصوات يتخللها فترات سكون طويلة في غرفة جرازيل والطفلين . ولم
 أتق إليها كثير بال في أول الأمر .

(١) صلاة تؤدى في العصر أو في المغرب معجوبة بترانيل موسيقية .

بيد أن التسلّك نفسه الذى اصطنع فى كتم الحمسات ، ونوع السر الذى افترضت قيامه بين الفتيات أثارا فى نفسى حب الاستطلاع . فوضعت كتابى ، وأخذت مصباحى الفخارى فى يدى اليسرى وحميته بىدى اليمنى من لفحات الريح حتى لا ينطفئ . واخترق فى خطو أصم كاتما ديبب قدمى فوق البلاط . وألصقت أذنى هلى باب جرازىلا . فسمعت ديبب أقدام تدرع الغرفة ذهابا ورجيئة ، وحفيف ثياب تطوى وتشر وخشخشة المشابك ، والإبر ، ومقصات النساء اللاتى كن يضبطان الأشرطة ويشبكن الأوشحة ، وهذه الثرثرة ، وهاته الطنطنة للأصوات الغضنة الى طالما سمعتها فى منزل أمى عندما كانت شقيقائى يرتدين ثيابهن للرقص .

ولم يكن ثمة حفلة فى البوزيليب فى الغداة . ولم تكن جرازىلا قد خطر ببالها قط أن تبدى حسننها بالترين . بل لأنه لم يكن فى غرفتها امرأة . فقد كانت تتمرأى فى دلو بر الشرفة ، أو بالأحرى كانت لا ترى نفسها إلا فى عيني .

ولم يقاوم حب استطلاعى هذا السر . فدفعت الباب بركبتي . وانصاع الباب وظهرت ومصباحى فى يدى على العتبة .

وأطلقت الفتيات العاملات صرخة ، وهربن هروب سرب من الطير لائنات بأركان الغرفة ، كأنما قد بوغتن متلبسات بجرميّة ، وكن ما برحن ممسكات بأدوات الجريمة لإحداهن بالحيط والأخرى بالمقص ، هذه بالزهور ، وتلك بالاشربة . أما جرازىلا ، وقد أوقفت فى وسط الغرفة فوق منصة صغيرة من الخشب ، وكأنما قد تحجرت لظهورى المفاجيء ، فلم تستطع أن تفر . كانت حراء مثل الرمانة .

وغضت طرفها ، ولم تجرؤ على أن تنظر إلى ، ولا تسكاد تنفس . ولاذ
الجميع بالصمت ، في انتظار ما سوف أقول ، ولم أقل شيئاً . فقد كنت
مستغرقة في الدهش ، وفي التأمل الصامت فيما رأيت .

كانت جراز يلا قد نهضت عنها ثيابها الصوفية الثقيلة ، وسترتها
السيرام البروسيدية الطراز ، ونعلها المموهين بالذهب الخشبي العقب
اللذين كانت تبحر فيهما عادة قدميها العاريتان . وكان قرطاسها الكبير ان
كبر الاساور ملقحين بإهمال فوق سريرها مع ملابسها الصباحية .

وبدلاً من هذا الرداء اليوناني البسيط ، الذي يواثم الفقير كما يواثم
الثراء ، والذي يترك الحرية والمرونة لجميع أعطاف المرأة بالجوب ،
المتدلية إلى منتصف الساق ، ومقورة الصدر وقصة الأكمام ، كانت
أتراب جراز يلا قد ألبسناها ، بناء على توصلاتها ، ملابس وحلي فنانة فرسية
في الدير نماهزها في العمر . كانت ترتدي ثوبا من الحرير المتعرج ،
وحزاما ورديا ، وشاحا لإشارب ، أبيض ، وقبعة محلاة بأزهار
صناعية ، وحذاء من الستان الأزرق ، وجوربين من الحرير المخمر يشفان
عن لون اللحم عند عقبي قدميها المستديرين .

وقد لبثت في هذا الثوب الذي فاجأتهما ترتديه مرتبة ، كما لو كانت
قد فاجأتهما نظرة رجل وهي عارية . وكنت أنا نفسي أطلع إليهما دون
أن أستطيع تحويل عيني عنها ، ولكن دون أن تنم لإشارة ، أو بادرة
تعجب ، أو ابتسامة ، عما خلفه تنكرها في نفسي من وقع . كانت دمعة قد
انجست من قلبي . فقد فهمت على الفور تفكير الصبية التعمسة . لقد

خجلت من الفارق الطبقى بينها وبينى ، فأرادت أن تجرب ما إذا كان تقارب فى الثياب يقرب مصيرينا فى عينى .

وقد أقدمت على هذه التجربة ، بمعاونة أترابها ، دون أن أدري ، مؤلمة أن تبدو بغتة أجهل هكذا فى عينى وأقرب إلى نوعى مما تعتقد أن تكون فى ثياب جزيرتها ، وطبقتهما ، البسيطة . بيد أنها كانت مخطئة وقد بدأت تدرك ذلك من سكوتى . واتخذت سجاوفا مسحة من الجرج القانط ، بل تقريبا من الدموع التى كشفت لى دفين هدفها وخيبة أملها .

ومع ذلك فإنها كانت كذلك جميلة أيا جمال . وكان من شأن تفكيرها أن تزيدها جمالا فى عينى ألف مرة . بيد أن جمالها كان أشبه بهذاب كان كأنه صورة لأولئك العذارى الشابات اللاتي رسمهن كورييج ، مسمرات فى قائمة خشبية فوق كومة حطب تأهبها للاستشهاد ، مثلويات فى أغلاهن بغية الإفلات من النظرات التى تدنس عفتن ، وآسفاه . . . كان هذا بمثابة استشهاد أيضا عند جرازيل المسكينة ، استشهاد حبها . كان موقفها يماثل سجاوفا ارتباكاً ، كانت لا تحار ، حراكاً ، خشية أن تسقط عنها أزهارها ، أو أن تنثعث هيئتها . وكانت لا تستطيع السير ، فليسكن كان حذاؤها يضغط على قدميها ويضفى على خطواتها تعثراً خللاً حتى لمسكنت تقول إن حواء بحر الشمس هذه الساذجة وقد وقعت فى حبايل أول دلال لها . ؟

— ٣١ —

وران الصمت هكذا فى الغرفة . لحظة وأخيراً ، وقد آلمنى أكثر

بما سرفى هذا التدنيس للطبيعة ، تقدمت نحوها زاما شفقت زمة ساخرة
 شيئا ما ، وناظراً إليها بتعبير خفيف من التأنيب والتمك الرقيق ،
 متظاهراً بأن عرفتها بصعوبة في ظل تحملها هذا ، قلت لها : كيف ؟ أهذه
 أنت يا جرازيل ؟ أوها من الذى كان يتعرف أبدا الحسناء البروسيدية
 فى هذه الدمية الباريسية ؟ واستطردت فى شيء من الغلاظة : هيا بنا ، ألم
 تستحي أن تشوهى هكذا خلقه الله فى ردائه الطبيعي رائع هذه الروعة ؟
 عينا تعلمين . تينا لك ان تكونى قط سوى فتاة أمواج ذات قدم
 بحرية تزين رأسك أشعة سمالك الجميلة . يجب أن ترضى بذلك وأن
 تحمدى الله عليه ، إن ريش طائر القفص هذا لا يصلح قط لعصفور
 البحر .

لقد آلمتها هذه الكلمة حتى فطرت قلبها . لم تفهم ما كنت أضمر
 لعصفور البحر من إيثار شديد ، حسبت أني اتحداهما أنها ان تشبه يوما
 حسناء من جنسى ومن بلدى . وظننت أن كل جهودها لتكون أبهى
 حسنا من أجل وكى تخدع عيني عن حالها الرقيقة . قد راحت هباء .
 ودفعة واحدة انخرطت فى الهكاه . وإذا عمدت إلى الجلوس على السرير
 مخبئة عيها بأصابعها ، رجعت صويحياتها وهى كظلم أن يهرعن لتخليصها .
 من زبنتها البغيضة . وقالت وهى ترتجف ، كنت أعرف جيدا أنى لست
 سوى بروسيدية فقيرة ، ولكنى حسبت أنى إذا بدل زبى ان أكون
 ماثارا لحنك لو تبتك إلى بلدك . أرى أنه يتعين على أن أظل كما كنت
 وأن أموت حيث ولدت . بيد أنه ما كان لك أن تلومنى على ما فعلت .

وعلى أثر هذه الكلمات انتزعت على مضض الأزهار والقبعة
 والإشارب ، وألقتهما بعيداً عنها فى حركة غيظ وحنق ، ثم جمعت تطاوها .

فألقدم موجهة إليها اللوم مثلاً فعلت جديتها بألواح الزورق بعد الغرق .
ثم هرعت صوئى ونفخت القنديل الذى فى يدي ، حتى لا أراها مئة
أطول فى هذا الثوب الذى لم يرقى .

لقد شعرت أنى كنت مخطئاً إذ مازحتها بعنف يمازى الحد ، وأن
المزاح كان مجرد . وسألتها الصفع . قلت لها : لى ما زجرتها ها هنا
إلا لآنى أجدها كبروسيدية أفن منها ألف مرة كفرنسية . وكان هذا حقاً ،
ولكن سبق السيف العذل . فما عادت تسمعنى ، إذ انخرطت فى التشجيع .
وجعلت أترابها يغلغل ثيابها . ولم أرها بعد ذلك إلا فى الغداة ،
كأنت قد عادت إلى ارتداء ثيابها الوطنية ؛ ولكن عينيها كانتا حراوين
يفعل ما كلفها هذا المزاح من دموع طول الليل .

- ٣٢ -

ونحو ذلك الوقت نفسه ، بدأت جرازيل توجس حذراً من
الرسائل التى أتلقاها من فرنسا ، مستريبة تماماً فى أن هذه الرسائل
تستدعينى . ولم تكن تجسر على أن تخفلسها منى ، فإلى هذا الحد كانت
صادقة الطوية وليس من شيمتها المخادعة حتى فى سبيل حياتها . ولكن
كأنت تحتجزها أحياناً تسعة أيام ، وتشبكها بإحدى دبابيسها المذهبة
تخاف صورة العذراء المعلقة على الجدار بجوار سريرها . كأنت تحسب
أن القديسة العذراء وقد رقت لكثير من صلواتها التساعية من أجل
حبينا سوف تغير لخرى هذه الرسائل بمعجزة . ، وتحول أوامر العودة
إلى دعوة للبقاء بقربها . وما من واحدة من هذه التديسات الصغيرة
الورعة خفيت عنى ، وكانت جميعها تزيدها معزة عندى . ولكن
الساعة تدنو ..

وذات مساء في أواخر شهر مايو قرح الباب قرعا عنيفا . وكانت الأسرة كلها نائمة . وذهبت لأفتح . كان صديق ف . . وقال لي دجئت أبحت عنك . هالك خطاباً من أمك . سوف لا تعصاه . وأقد أمرت بإعداد الجياد لمتصف الليل . والساعة الآن الحادية عشرة . فلنرحل ، وإلا قلن ترحل قط . وهذا الامرى يقضى على أمك . . وأنت تعرف إلى أى مدى تعدها أسرتك مسؤولة عن كل أخطائك . وإطالما ضحت من أجلك ، فلنضح أنت لحظة من أجلكها : وأقسم لك أنى سوف أعود معك لننطق الشتاء وسنة أخرى طويلة هنا . ولكن يجب أن تظهر بين أسرتك ، وأن ترضخ لأوامر أمك .

وشمرت بأنى قد ضمت . قلت له انتظرنى هنا ، رجعت إلى غرفتي وألقيت ثيابى فى حقيبتى على عجل . وكسبت إلى جرازىلا . قلت لها كل ما استطاع خنانى أن يعبر به عما يجيش بقلب ابن ثمانى عشرة سنة ، وكل ما استطاع العقل أن يطلبه من فتاة غلصة لأمها . وعاهدتها كما عاهدت نفسى ، أن أكون بقرها قبل أن ينقضى الشهر الرابع ، وأنى لن أفارقها بعد ذلك . وإذ طويت الرسالة ، اقتربت بخطوات صامتة وجثوت على ركبتي على عتبة باب غرفتها ، ودسست القصاصه إلى غرفتها من تحت الباب ، وازدردت الغصه الباطنة التى كانت . . تخنقنى خنقاً .

وتأبط صديقى ذراعى ، وأنمضنى واقتادنى ، وفى تلك اللحظة فتحت الباب جرازىلا التى أفرعتها ولا شك هذه الجلبة غير المألوفة . وتعرفت الصبية المسكينة هل صديق . وأبصرت حقيبتى التى كان يحملها

أحد الخدم على كنفه فدفدت ساعديها ، وأطلقت صرخة دعر ، ووقعت فوق الشرفة فافقده الوعي .

فوثبنا نحوها . وحملناها دون أن ندري إلى سريرها . ونقاطرت الأسرة كلها . وطفقوا يرشون بالماء وجهها . وينادونها بجميع الأصوات العزيزة عليها . إلا أنها لم تستعد رشدها إلا على صوتي . وقال لي صديقي : ها أنتذا ترى أنها على قيد الحياة . لقد تحمات الصدمة ، إن المزيد من الوداعات الطويلة لن تكون إلا صدمات مضادة أهول وقعاً . وفك ذراعيه الباردتين من حول عنقي وانتزعني من الدار انتزاعاً . وبعد ذلك بساعة كننا نطوى في ظل السكون وفي هدأة الليل الطريق إلى روما .

— ٣٤ —

كنت قد تركت لجرانزبلا كثيراً من العناوين في الرسالة التي ديجتها لها . ووجدت رسالة أولى منها في ميلانو . وكانت تقول فيها إنها سايمة البدن سقيمة القلب ، غير أنها تثق بكلمتي وسوف تنتظرنني آمنة مطمئنة نحو شهر نوفمبر .

ولما بلغت ليون وجدت رسالة ثانية منها أشد نقاء وأمن اطمئناناً . وكانت الرسالة تنطوي على بعض أزهار القرنفل الأحمر التي كانت مستنبئة في أصيص من الفخار فوق دجاجة الشرفة على مقربة من غرفتي ، والتي كانت ترشق زهرة منها في شعرها يوم الأحد . ترى أكان ذلك يرسل لي شيئاً كان يؤثر في قلبها ؟ أم كان عقاباً دقيقاً مستخفياً في ظل رمز ومقصوداً به تذكيري أنها قد ضحكت شعرها في سبيل ؟ . ثم مكثت بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر دون أن ألتقي أية رسالة .

وكننت أفكر في جرازيل كل يوم . وكننت وزمعا الرحيل ثانية إلى إيطاليا في مستهل الشتاء التالي . وكان يحياها الحزين الساحر يترامى لي إبان ذلك كطيف ندم ، وأحيانا أيضاً كطيف عتاب رقيق . وكننت في تلك السن الجمادة التي يثير فيها الطيش والتقليد خجل الشباب من خير مشاعره ؛ سن قاسية تنهوى فيها فوق الرمل أجل عطايا الله ، الحب الخالص والعواطف البريئة ، وتذروها رباح الدنيا ذرو الدقيق . كان زهو أصدقائي هذا الرديء . والساحر معا كثيراً ما يصارع في نفسى الحنان المسكون والخمى في أعماق فؤادى . ما كننت أجرو على الاعتراف دون أن أخجل ودون أن أعرض للسخرية والتمك أيا كان اسم ومكانة مناظ أسفى وأشجافى . أبدا ما كانت جرازيل منسية وإنما كانت محجوبة في حياتى . هذا الحب الذى كان يسحر فؤادى ، كان يضائل من احترامى .

إن ذكرها التي كننت أرهاها وأغذيها في نفسى في العزلة فقط . كانت تطاردنى في المجتمع كأنها وخز الضمير ! لسم أخجل اليوم من أنى خجلت آنئذ ، إن شعاع غبطة واحد أو عبدة واحدة من عينها الظاهرة كانت أمين من تلك النظرات ، من كل تلك المغازلات ، ومن كل تلك البسات التي أوشكت من أجلها أن أضحي بخيالها . آه . إن الشاب اليافع عاجز عن أن يحب ! إنه لا يعرف قيمة أى شىء ! إنه لا يعرف السعادة الحقة إلا بعد أن يفقدها ! الأشجار الغضة بالغابة فيها عصارة أكثر جنونا وظل أكثر تنقلا ، أما قلب السنديانة العجوز فأكثر نارا . إن الحب الصادق هو ثمرة الحياة الناضجة . والمرء في الثامنة عشرة لا يعرفه وإنما يتوهمه . وفي العليعة النباتية عندما تأتى الثمرة تسقط

الأوراق ، ولعل الأمر كذلك في الطبيعة البشرية . كثيرا ما فكرت .
في ذلك منذما جعلت أعد الشعرات البيضاء تكلل رأسى . ولقد كنت
نفسى على أنى لم أعرف عندئذ قيمة زهرة الحب هذه . ما كنت إلا
كبيرا . والكبر أعق الرذائل وأقساها لأنه يثير الحجل من السعادة !

- ٣٥ -

وذات مساء فى أوائل نوفمبر ، سلت إلى إثر عودتى من حفلة ساهرة :
قصاصة وحزمة كان قد أحضرهما لى مسافر فادم من نابولى من محطة .
البريد عندما غير جياده فى ماكون . كان المسافر المجهول يخطر فى أنه .
كلف بإبلاغى رسالة هامة من قبل أحد أصدقائه ، مدير أحد مصانع
العقيق فى نابولى ، وقد أدى الرسالة بمروره ، وإنما لم يسأل أن يلغاني .
لأن الأنباء التى يحملها لى محزنة مشوشة ، ويرجوني فقط أن أبلغه .
فى باريس أنى تلقيت الحزمة .

فضضت الحزمة مرتعشا . وكانت تتضمن — خلف الغلاف الأول —
رسالة أخيرة من جرازىلا ، لا تحتوى غير الكلمات التالية : « يقول
الطبيب لى ساموت قبل انقضاء ثلاثة أيام . أود أن أقول لك الوداع
قبل أن تغور قواى . أوه ! لو أنك كنت هنا ، لذن لعشت ،
ولكنها إرادة الله ، سوف أكلك عاجلا ودائما من عليين . فلتعشق
روحى . ستكون معك طيلة عمرك . وإنى أدع لك شعرى الذى قصصته .
ذات ليلة من أجلك . فلتكرسه لله فى إحدى كنائس بلدك حتى تكون
بضعة من ذاقى بالقرب منك . »

- ٣٦ -

مكثت مشلولا معدوما ، ورسالتها فى يدى ، حتى طلع الفجر .

لم تواننى القوة قبلئذ على فض الغلاف الثانى . وكان ينطوى على شعرها الجليل كله بالحالة التى كان عليها ليلة أن أرتنيه فى السكوخ . وكان لا يزال مختلطاً ببعض أوراق الخلعج التى كانت قد لصقت به ليلئذ . وفعلت ما أوصت به فى أمنيتهما الأخيرة . ومنذ ذلك اليوم انتشر ظل موتها على حياى وعلى شبابى .

وبعد ذلك باثنى عشر عاماً عدت إلى نابولى وجعلت أقننى أثرها ، ولم أجد لها أثراً فى مارجليتا ولا فى بروسيدا . كان البيت الصغير القائم على صخور ساحل الجزيرة قد انهار أطلالا . فما عاد سوى كتلة من الصخور الغبراء فوق قبو يحمى فيه الرعاة عززاتهم أثناء الأمطار . إن الزمن يمحو ما فوق الأرض بسرعة . ولكنى لا يمحو قط آثار حب أول فى القلب الذى اخترقه .

أى جرازيل المسكينة ، كم من أيام مضت منذ تلك الأيام ! سكن ما من شىء غير ظهورك الأول فى قلابى . فسكماً تقدم فى العمر ازدادت منك قرباً بفكرى . إن ذكراك مثل نيران قارب أبليك هذه . التى يخلصها المدى من كل دخان . والتى تزداد تألقاً كلما ازدادت تأيلاً عنا . لست أدرى أين يرقد جثمانك . ولا ما إذا كان أحد لا يزال يبيكك فى بلدك . ولكن لحدك الحق فى ذاتى . ففيها قد ضممت ووريت بأكملك . وليس عبثاً قط أن اسمك يؤثر فى قلابى . لى أحب اللغة التى يلفظ بها . وإن ممة دائماً فى شغاف فؤادى عبرة . تنسكب قطرة . أو تساقط خفية على ذكراك لتتمشها وتبقىها فى روحى حية عطارة .

الناشر
دار الفكر العربي

Bibliotheca Alexandrina



0385782